



جياس محمد موت الحقائق



المصنوع: الصديقة بنت الصديق.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يوليو 2005 .

رقم الإيداع: 2000/ 17574

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1451-8

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434 (02) - 3472864 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330297 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - القجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 القجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002236223
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1998

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتتبع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة .

ونعنى بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التى لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضى على الفطرة التى توحىها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضروريات . .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة فى جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التى ضربت على المرأة فى القرون الأولى ، وامتدت إلى القرون الوسطى ، إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التى انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس ، لأنهم ألَقُوا عليها تبعة الشهوات التى تثيرها فيهم وجعلوها حِبالاً للشيطان ، مذ كانوا يحسّون بغوايته الخفية كلما أحسّوا بغواية الشهوة الحيوانية ، ومناطقها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة فى الشر والخبائثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى فى عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذى يحكم عليها بالاستعباد والخطّة المتفق عليها فى المنزلة الاجتماعية ، وإنما عُرِفَ هذا

وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين ، لأنهم كانوا أصحاب مُلك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره ، ولم يلاحظوا في ذلك عَنَتًا خاصًا بها ولا ضغينة «جنسية» موجهة إليها دون غيرها ، لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال فعاملوهم معاملة الضعفاء ، وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك في عِزَّة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضًا لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيبتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالاً كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللحظة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان ، وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية . وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذاك . وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على «حماية الذمار» مقدمة على كل قدرة ولأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء .

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كلاً ثقيلاً على عرائق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته والذود عنه .

وهذا الذى يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة فى الآداب العربية ، لأنها - عند الرجوع بها إلى أسبابها - لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة فى الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحرب نُسِبَتْ بين بنى بكر وبنى تغلب أربعين سنة ، لأن البُسُوسَ ابنة منقذ أضافت رجلاً ، فضرب كَلَيْبَ ناقة ذلك الرجل ، وهو فى ضيافة البسوس ، فأقسم ابن أختها جَسَّاسَ لها « لِيُقْتَلَنَّ غَدًا جَمَلٌ هو أعظمُ عقراً من ناقة جارك » ، وَقَتَلَ كَلَيْبًا سيد بنى تغلب فى ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة فى ناقة جارها .

والى جانب ذلك يعلم القارئ أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها فى طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها . ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التى تدعو إلى إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية نجعل المرأة أحقَّ شىءً بأن يُحمى وأن يَغَارَ عليه الحُماة ، لأنها أمسُّ بالرجل من أرض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة ، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شىء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبت على العار . وإذا رجعنا إلى الأصل فى « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذى أوجبه شحُّ الأرض بالرى والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغرى بالقسوة المهينة ، وأن توسوس للمعوزين فى

سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على
تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعني بهن البنات الزائدات على
حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار ، كما قال
البحترى وهو يعزى بنى حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :
أَتَبْكِي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيْفِ مُشِيحًا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ
ويختتم عزاءه بقوله :

وَلَعَمْرِي مَا الْعَجْزُ عِنْدِي إِلَّا أَنْ تَبَيْتَ الرُّجَالَ تَبْكِي النِّسَاءُ
فقد قال في تلك القصيدة :

لَمْ يَيْدُ كَثَرُهُنَّ تَمِيمٌ عَيْلَةً بَلْ حَمِيَّةٌ وَإِبَاءُ
يشير إلى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذي أقسم ليثدن كل
بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذي سبهاها على العودة
إلى أهلها . فكلام البحترى إن صدق فإنما يصدق على قيس
وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عيلة -
أي إشفافاً من النفقة - كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من
العار . وأية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشتري البنات من
آبائهن ليستحييهن ، فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ،
حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتي وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن
يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن ومن في قيد
الحياة ، ولحق بهم في بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ ﴾

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائص الظاهرة مصدرها واحد ،
وهو النزاع على الرزق ، وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية

والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق ، كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة ، كما يفسر لنا إعزاز جاراها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة في جوار خالة رئيس ، ويرجع كله إلى نظرة طبيعية تجرى مع الحوادث في مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ، ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

ومن لوازم هذا النزاع الشديد في مظهر آخر من مظاهر البادية العربية أنه جعل المرأة عاملة نافعة في حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التي كان يعيشها البدوى في صحرائه المجدية تأبى عليه الترف والبذخ ، ولا تتسع لإسراف المدنى الذى ينفق ما ينفق على المرأة ، ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة ، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة ، فكانت المرأة العربية - فى البادية خاصة - تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرته وقبيلتها ، وتعمل كل ما تستطيع أن تعمله لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء ، وتمخض اللبن ، وتغزل الصوف ، وتصنع الخيام ، وتضمد الجراح ، وتطب لنفسها فى شئون الحمل والولادة ، وتحذق من هذه الشئون ما تجهله المرأة الحضرية فى كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطيب نفسها وقيامها على رعى الأحياء التى تلازمها فى غلوها ورواحها وفى حصتها ومرضها وفى حملها وولادتها وفى اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة فى جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط أن

نطابق العلم الحديث فى جميع تحليلاته وتفصيلاته ، بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طباً معروف فى علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر فى هذه الشئون لم يكن عند المرأة العربية هملاً متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك فى بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .



إلا أن الشظف الذى كان يعم الجزيرة العربية ويذكرى فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خلوا من الجوانب التى يرق فيها ويلطف وتسرى منها الرقة واللفظ إلى العلاقة بين الرجال والنساء فتنعم المرأة بالرفق الذى يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها فى سائر البيئات الإنسانية لا فى الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة فى بيئة الحضارة ، وجانب النشأة فى بيئة السيادة ، فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشى النفوس وتغنى القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للدمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، لأنها العلاقة التى تمتحن بها الكياسة وأداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا ببناتهم من العزة والرخاء . فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المجلات اللواتى يغنين فى بيوتهن عن الهدمة المسفة ، العيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن فى رأى ويدخلوهن فى المشورة ، ومن أبناء ذلك التى استفاضت فى الأدب العربى أن الحارث بن عوف المرمى قدم على أوس بن حارثة الطائى خطباً ، فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث بن عوف

سيد من سادات العرب قد جاءني طالبًا خاطبًا ، وقد أردت أن أزوجه من منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي ردة ، وفي خلقي بعض العهدة ، ولست بابتنة عمه فيرعى رَحْمِي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى ، وعرض عليها ما عرضه على الكبرى ، فقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني !

فلما دعا بأختهما الصغرى قالت : « . . ولكنني والله الجميلة وجهًا ، الصنّاع يدًا ، الرفيعة خلقًا ، والحسبية أبا ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ! » .

وهذه الفتاة الصغرى - واسمها بُهَيْسَة - هي التي تزوجها الحارث وزُفَّت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها في ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان ، فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما . . فأكبر منها زوجها هذه الحكمة ، وسعى في الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنبياء على اختلاف الروايات باستشارتهن في الزواج هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها ، فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعتَه تابعك ، وإن ملّت عنه حطّ إليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسّع عليه ، منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب ،

مِدْرَةُ أرومته وعِزُّ عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضِعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله .

فقلت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحُرَّة ، فما عست أن تلين بعد إِبائِها ، وتضيق تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشربت وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عن ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه على بعد ! وأما الآخر فبَعْلُ الفتاة الخريدة الحُرَّة العقيلة . وإنى لأخلاق مثل هذا الموافقة . فزوجنيه . »

ويلوح من تكرار هذه الأنبياء أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سُنَّة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

ومن البداية أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيثة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون في قبيلة بنى تميم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان في موضوع الذؤابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبنى بيم خلاصة الآداب التى بجمت من
فرئض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهديب
بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلاً فى هذه لآداب
جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية ؛ لأن سيادة هذا البيت
لم تكن سيادة طعيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ،
وكانت حصته فى الجاهلية من مقاوم الشرف حصّة الوفاء
بالمغارم وضمنان الديون ، وعمله الأكر فى الجاهلية يدور على
التجارة ومعامة الناس ، ولا يدور على البأس والإكراه .

فشأ البيت كده على الرفق والدمائة ورقة الحاشية ، واشتهر
بتليل نسائه وبناته حتى قيل كما جاء فى الأغاني - إنهن كن
أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عبد الحسين بن على
رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله
لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا بكلمنى »

وندر من أباء الصديق عليه السلام من هم يكن مع امرأته شأن يذكر
فى باب المحبة بين الأزواج :

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعانكة بست ريد العدوية ، فهام بها ،
وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها ،
فطلقها وهو كره ، ثم أدركه الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

أَعَاتِكُ لَا أَنْسَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقُ	وَمَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مَحَلَّقُ
أَعَاتِكُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ	نَدِيكَ بِمَا تُخْفِي النُّفُوسُ مَعْلَقُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلِي طَلَّقَ الْيَوْمَ مِثْلَهَا	وَلَا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ تَطْلُقُ

وأخوه عبد الرحمن بقله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودي من
حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها
فترة إلا نظم الشعر فى الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّمَاءَ بَيْنَنَا فَمَا لِابْنَةِ الْجُودَى لَيْلَى وَمَا لَنَا
وَأَنْتِ نُلَاقِيهَا ! بَلَى وَلَعَلَّهَا إِذَا النَّاسُ حَجَّوْا قَابِلًا أَنْ تُوَافِيَا

وأفرط فى التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضى
الله عنها ، وما زالت به حتى جفها ، فعادت تلومه فى جفائها
وتقول له . « أفرط فى الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن
تجهزها إلى أهلها » فجهزها إلى أهلها .

ومن ذرية الصديق « ابن أبى عتيق » صاحب عمر بن أبى ربيعة
شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالحفاء بيه وبين الثريا ،
فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن
مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتخرج من نروات عمر ويسأله : ألم تخبرنى
أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول . بلى ! فيستخره عن قومه :
وَمَانِلْتُ مِنْهَا مَحْرَمًا غَيْرَ أَنَا كِلَانَا مِنَ الثُّوبِ الْمُرْدِ

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسر ظنه .
فآداب الرجال والنساء فى بنى تيم كانت مثالا بلرعاية التى
تظفر بها المرأة العربية فى بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية فى قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التى جعلت
عرضها أحق شىء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه

فكان أبو بكر نفسه مثلاً من أمثله الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين . كَانَ أَعْيَرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَعْدَ بَيْتِهَا أَبُو بَكْرٍ . وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى زَوْجَتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمَيْسٍ ، فَكَرَهُ دُخُولَهُمْ عَلَيْهَا ، وَشَكَاهُمْ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَامَ عَلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ : لَا يَدْخُلُنَ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُنْقِبَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ .

ولما شَبَّ عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمَّع فتیان تيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقْتُلْنَه شر قتلة فأقسم لا عاد .

وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إِنْ اللَّهُ وَسَمِي بِمِيسَمٍ جَمَالٍ أَحَبُّبٌ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَيَعْرِفُوا فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ ، فَمَا كُنْتُ لِأَسْتَرَهُ . وَاللَّهِ مَا فِيَّ وَصْمَةٌ يَقْدِرُ أَنْ يَذْكُرَنِي بِهَا أَحَدٌ » .

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وأداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحماية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .

ولكها تفرَّدت برعاية لم تشركها فيها ولائذ هذه البيئة . فقد تربَّت على المعصية والخير ، وتدرَّبَت على العزة والكرامة ، وتعلَّمت القراءة التي لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعلودة

فصحَّ أن يقال : إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لنتائج حماية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شمائل الحصر ومآثر الشرف والسيادة .

المرأة المسلمة

حاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة ، وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضرة في معاملة المرأة العربية .

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكن امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات ، كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من يرضاه ويهمله من ياباه . .

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ، ووجه إليها الخطاب في كل شيء ، كما وجهه إلى الرجال ، إلا ما هو من خصائص عمل الرجال في العرف المستقيم .

فالمراة في شريعة الإسلام إنسان مرعى الحقوق والواجبات ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة ﴿ . وكل امرأة أو فتاة - من العلية أو الشؤقة - لا يصح زواجها حتى يرجع إليها ، فيه (فلا تكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن ، وعلامة إذهاب السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .

ولها أن تمتلك ما تشاء ، وأن تباع وتشتري ما تشاء ، وأن
تشارك في الإرث ، وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا
تضرب بالسيف . بل كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً
ينتقل إليه كرها ، كما يرث النخيل والإبل والحطام فأبطل
الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا نِسَاءَكُم مَّا كَرِهًا

وقضى بأن تباع النساء كما باع الرجال ، فلا تعنى عن
مبيعتهم مبايعة آبائهن وأزواجهن وأولياتهن ونص القرآن الكريم
على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَسَئَلْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِأَنفُسِهِنَّ وَلَا يَسِرْنَ
وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهِنَّ بِهَتَّاتٍ بَيْنَ أَيْمَنِ
وَأَرْجُلَيْنِ وَلَا يَتَّبِعْنَ فِي مَعْرُوفٍ قُبَايَهُنَّ وَأَسْتَفْرَظْنَ نَفْسَهُنَّ فَوَرَّجِمَنَّ

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن
المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من
حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ،
ورجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد ..

﴿ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ
مَا بُشِّرَ بِهِ أُمُّ يَكُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي الْأَسَاءَةِ مَا مَحْكُورٌ ﴿٥٩﴾

ومن لأدب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه عليه من
بحوها ، عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خير له ولها

﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا شَيْئًا

وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝

وكانت وصايا النبي ﷺ على منهاج أوامر القرآن في إصاف
المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول .

« حَيْرُكُمْ حَيْرُكُمْ لِلنِّسَاءِ »

و « مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَيْئِمٌ » .

وأسد الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحي جبريل حيث قال .
« مَا رَأَى جِبْرِيلُ يُوصِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى طَنَنْتُ أَنَّهُ يُحَرِّمُ طَلَاقَهُنَّ » .

والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين
الرجال فضلا عن النساء ، جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة » ، واستحبه عليه السلام حتى للإماء
حيث قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ،
وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ » .

هذه هي المنزلة التي تبوأتها المرأة في الشريعة الإسلامية .

وهذه هي المعاملة التي أوجبتها أدب الإسلام على المسلمين
كافة ، وهي أرفع من كل أدب ترقى إليه الحاهية في الجواب
التي تهذبت فيها معاملة المرأة بين دوى السيادة والحصارة من
أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن
للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إصاف

ومهما يكن من رأى فى موقف العصور الحديثة من المرأة - وهو ما نعرض به فى ختام هذا الكتاب - فالذى لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذى يعمل بدينه يوليها من البرّ فوق ما طلّته لنفسها ، لو أنها كانت فى زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطع ، وهى على هذه موكلة بالتعميم الذى يستوى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإما طاعة التكليف فضيلة تملوها فصائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإيجاز ، كأن الإيجاز هو المثوبة التى تغنى عن المثوبة الموعودة . وهى هنا تتفاوت المراتب وتترقى المصائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، وتستبق النفوس حتى يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهى المرتبة التى سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسبة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها ، ولكنه حاسبها فطرة كما حاسب كل مخلوق حياً ولا سيما الضعفاء ، وجعل البرّ بها مقياس المفاصلة بين أخلاق الرجال وعنوان المفاصلة فى طلب الخير والكمال ، فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء »

وبلغ من ذلك أنه يأوّد إلى البيت « فيكون في مهمة أهله ، فإذا حصرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : « خِدْمَتُكَ رَوْحَتُكَ صَدَقَةٌ » . وكان أكيّس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويזורهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس صحاكاً بساماً » ، كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة في تنهّي الرحمة أن يقال : « إنه أرحم به من أمه وأبيه » .

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الدير اشتهروا بالحدب الشديد على ذوى الرحم كأبى بكر الصديق رضوان الله عليه .

ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله ﷺ كلام فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين أبى عبيدة بن الجراح ؟ قلت : لا . ذلك رجل هين لين يقضى بك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم فأرسل إلى أبى بكر فجاء ، فقال : اقصصى ! فقلت : بل اقصص أنت . فقال : هي كذا وكذا . . . فقلت : أقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : نقولين يا بنت أم رومان . أقصد ؟ من يقصد إدا لم يقصد رسول الله ؟ فحعل الدم سبيل من أنفى ، وقال رسول الله ﷺ إنا لم نرد هذا . وجعل يغسل الدم بيده من ثيابه ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه . . . » .

وكان برّه بمن مات من أرواحه أكرم من برّه بمن يعيش معه ويراهن كل يوم فلما ماتت زوجته الأولى حديجة رضي الله عنها

حزن عليها ، وسمى العام الذى قضت فيه « عام الحزن » ، ووفى
 لذكرها صوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تعارمها وهي في
 قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتي يعشن معها في كنفه .
 وقالت له يوماً : هل كانت إلا عجوراً بذلك الله خيراً منها؟ فقال لها
 مغضباً « لا والله ! ما أبدلني الله خيراً منها . أمست بي إذ كفر
 الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني
 الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء »

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة العابرة لحليق أن يرعى المرأة -
 حين تنسى غيرتها - أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفصيل في
 حياتها لجمالها وشبابها وعيم عشرتها وصفاتها .

* * *

ويجن لا يعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب -
 عائشة بنت الصديق - إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها
 الوجهة التي اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهذيب .
 فمن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة
 تيم الدين اشتهروا بظرف الرجال وتدلil النساء
 ومن قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ،
 وتجاوزتها ، فملكيت الحظوة التي يضيفها على نسائه نبي كريم ،
 يتجاوز الحقوق المفروضة صعداً في معارج الكمال ، وكانت هي
 بعد هذا صاحبة الحظوة لأولى بين هؤلاء النساء .

إبها لمجدودة من بنات حواء .

ولهذا الجد السعيد شأن أى شأن في تاريخها الذى اتصل
 بتاريخ الإسلام .

المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتركت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء

والسيدة عائشة رضي الله عنها هي هذه ، وهي تلك .

هي المرأة التي لوحظت في آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى :

وهي المرأة التي قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التي عرفوه بها في دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يُبَوِّئ الإنسان بين قومه مكانًا ملحوظًا من جوانب التاريخ . .

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهتم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو لسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة في تكوينها الأصيل الذي خلقه الله منذ

خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأتى الخالدة التى لا
تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت
من طبائع الإنسانية كل ما قدر بها من دوام

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمه وكل عظيم .

فمهما يقل انقائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء
فالحقيقة التى لا ريب فيها عندنا هى أن الغرض الأول ، أو
الغرض الذى تنتهى إليه جميع الأغراض وهو بوثيق الصلة بين
الإنسانية وبين عظمائها وعظيمااتها ، والنفاذ إلى الجانب
الإنسانى من كل نفس تستحق التنويه والدراسة

وما من علامة هى أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه
العلامة .

فنحن نعلم أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .
ونحن نعلم أننا نائهون فى الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا
إلا سراييل العظيمة وأقواس النصر وكواكب الرهبة والخشوع .

نحن إذا فهمنا النبى نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره
وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلاً وكفى فإنما وصلنا بين قدرته
وقدرتنا وبين ضخامته بالقاس إلينا وضالطنا بالقياس إليه

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه فى
الأمة ومركزنا ، وبين الحقوق التى به والواجبات التى عليه ،
والحقوق التى لنا والواجبات التى علينا .

ولكنا إذا فهمنا السبى إنساناً فقد فهمناه كله ، وفهمناه على حقيقة التي تعيننا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبين ، لأسنا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم ، لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان .

والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها .

فصلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي بللمحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى .

وأنها ترينا النسي في سته ، فترينا الرجل الذى ارتفع بالنسوة إلى علوا مراتب الإنسانية ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته ، كم يكون الرجال بين النساء عبي سة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ماتقرأ ، فلا ترال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هى الأنثى الخالدة فى كل سمة من سماتها .

هذه هى الأنثى الخالدة فى غيرتها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى دلالتها . وهذه هى الأنثى الخالدة فى كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايلة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهى قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خسر من أخمار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء . والغيرة في طبائع النساء ألوان

تعار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه وهو شغلته الدكرى ولم تشغله المودة الحاصرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهي تأسى على كل ما يفوتها شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محدورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكاتها في رجلها كائنًا ما كان حظها من الجمال ؛ وتغار من كل مزينة غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الخطوة في القلب الذي تريده لها ولا تصيق المراحة عليه .

و « لأنثى الغيرى » في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها والحق النبوى الذي هي جاهدة جهدها أن توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفة منذ سنوت يوم نثى النبى بالسيدة عائشة .

ولكن السيدة عائشة كانت تعار منها عيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها النواتى يعش معها . لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يرورها أو يراها !

وكان عليه السلام يبر بعض العجائر ، فسألت السيدة عائشة في ذلك ، فقال : إن خديجة أوصتني بها . فقالت مغصبة . خديجة .. خديجة . لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة .

وعلى حرم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى حديجة ، فعصب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها - أم رومان - عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السن ، وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتاً وهو يقول لها : أأست القائلة . كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا بخديجة !

وسأله مرة : ما تذكر من عجز حمراء الشدقين قد بذلك الله خيراً منها ؟ فأسكتها قائلاً . « والله ما أبدلني الله خيراً منها . أمنت بى حين كدبنى الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمتني من غيرها » .

أما شريكاتها اللواتي كن يعايشنها في بيت السي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبي عندها فضلاً عن الغيرة من الجمال أو الملاحاة .

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذي يهيئه له زينب بنت جحش من أجمل أمهات المؤمنين وأحطاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبعضاه في عسلها ، وقالت فيما روته عن نفسها : « . فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل به أأكلت مغاير ؟ وهي طعام من صمغ حلوى ، ولكنه كربه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريبه . فلما دخل عندها رسول الله قالت : إني أجد منك ريح مغاير . قال : لا ؛ ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود إليه » ! .

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهي ، وهي في الأصل إسرائيلية من أهل خيبر ، فنفست عليها السيدة عائشة هذه

الإجادة ولم تكتم منها بل هي التي روتها ، ومن حديثها عنها عرفاها قالت . « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل - أي قشعريرة - فارتعدت من شدة الغيرة ، فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » .

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمناقسة والمغاينة وهي بالبداية دون غيرتها من الزميلات اللواتي كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى من تفضيلها عليهن في المودة والحرارة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ؛ وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده ، قالت :

دخل على يوماً رسول الله ﷺ فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء ، كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشيع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قالت : يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت

بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التي ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كن امرأة من نسائك قد

كنت عند رجل ، غيري . .

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شرية عسل تستطاب عند إحدى الرميلات ،
أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداواة لعيرة - تثير هذه
لمنافسة وتغرى بهذه المؤمرة فليس من العسير أن نهم كيف
تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرقها
النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن سنوات ، وهو
شديد الكلف بها والتطلع إليها .

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات .

وقد ثرت ثائرتها يوم ولد له عبد السلام ابنه إبراهيم من مارية
القبطية ، وكانت على هذه المرية التي امتازت بها جميلة بيضاء
، تغار منها الرميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه
الأمومة التي تفردت بها بين تسع نصيرات .

قالت كتب السير : وغارت زوجات السي ولا كعائشة

لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التي
ترفعت إليها « مارية » بأمرتها ، فهي أحق بالعيرة على ذلك
المكانة من سواها .

ولا ريب في حب عائشة للنبي ، ولا في سرورها ورضاها بما سره
ويرضيه . ولكن نطالب الطبيعة الإنسانية - والطبيعة السوية - بما
يرهقها إذ نحن نرقبها منها أن تسر بما يثير عيرتها ، وأن تحب الرجل
ثم تسر بما عسى أن يصرف حبه عنه ، أو ينقص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .

ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحبه إلى غيرها ،
لأنها تحبه .

وقد يفترق القلب في لحظة من اللحظات ، لأيهما مقتربان
أشد اقتراب .

وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ، وهي
فتية جميلة رضية ، يدينها من قلب البى شتى المرايا ، وأولاها
هذه المرية النى تربي على كل مزية .

فلما رأت عائشة فرح النى بالوليد المرموق ، وأحسّت شغف
النبي به حاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه
المغالبة ، وقال لها يوماً : اظري إلى شبهه ! فلم تملك لسانها أن
تقول . ما أرى شيئاً . . وربما أعجبه نمو الوليد ، ولغتها إلى
بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه
، لأنه هكذا كن طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبي من غيرتها تأديب وتهذيب ، لا غضب
سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ، ولا يعبرها فيما
ينبغي له أن تتوحاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى أحسها
هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه

فقلما لامها فى شيء يمسه من غيرتها

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤحذتها على فلتت هذه العيره
التى تمس أباسا آخرين فيؤاخذ مؤاخذه المؤدب الرفيق ،
ولا يدع لها أن تعيد ما أخذها عليه .

عابت أممه زوجته السيدة صفية ، فذكرت من عيوبها أنها
قصيرة فكره أن تمصى فى حديثها وقال « يا عائشة ! لقد قلت
كلمة لو مَرَحَتْ بماء البحر لَمَزَجَتْه » .

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها أن تحكى الناس حكاية اسنهاء .

ومن « الأنثويات » الحالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهي أشوق ماتكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة وللسيدة عائشة بؤادر شتى في هذا الدلال الذي شابها به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التي لم يبلغنها . غضب النسي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهراً ، وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً .

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجّة أي رجّة ، لأن تطليق النبي زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض به عليه السلام في بيته ، ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعها بها صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخّل تلك الرجّة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أثمّ هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه . حدث أمر عظيم . قال عمر : ماهو ؟ أجمعت عسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول ، طلق النبي ﷺ نساءه

ثم تحرى عمر الخير من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك ، وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النأ ، ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى بما بلغهم من طلاق نسائه .

ولا ريب أن نساء النبي أمسهن كانت بيهن للبأ رجّة أشد
عليهن من هذه الرجّة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها
من قبل أثر في قلوبهن أبغ من هذا الأثر .

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل
عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فمادا سمع منها أول ماسمع ؟
قالت : يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً وقد
دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون .

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة
وعشرين يوماً ؟ كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول
النبي كم مضى وكم بقى على طنّها من أيام العقوبة . ولكنها
الأنثى الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة في هذا
الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال .

وما من سمة في الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت
في السيدة عائشة ، وقد صدق فطرتها فيها ، وإن كانت لتروض
نفسها تلك الرياضة العالية التي تجمل بزوجة محمد ﷺ وبنّت
الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرصت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت
جارية حديثة السن ، أو حدث ذلك لجهلى وصغر سنى ، وربما راقها
أن تختار من الروايات التي ذكروها لها عن سنّها أقرب تلك الروايات
إلى التصغير وأولاهها أن تميزها بين زميلاتّها بميزة الشباب .

وقد نكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها
قالت : « وليست ثيابي طفتقت أنظر إلى ذيلي وأن أمشي في
البيت وألتفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل عسى أبو بكر فقال
عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذلك ؟
قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مَقَّتَه ربه
عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فرعته فتصدقت به ، قال
أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عت » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة ، هي حواء التي
تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر
الله إليها ، وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى ربة أعلى وأعلى .

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة
انعربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان .

عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد ، مختلف فيه ، كما اختلفوا في نسبها ، واتفقوا على أنها من كنانة .

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجًا لصاحبه في الجاهلية عد الله ابن الحارث بن سخيصة ، وولدت له ابنة الطفيل ، ثم مات وخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليته .

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتًا شديدًا ، في سبيل دينها وروجها ، ويروى عن النبي عليه السلام أنه قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَلْيُطْرَ إِلَى أُمِّ رُومَانَ » .

وقد اختلفوا في سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت في حياة النبي عليه السلام ، إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضي الله عنه ، والأرجح في رواية البخاري أنها عاشت إلى أيام عثمان . ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها :

ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بى بها الرسول عليه السلام .

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه السلام يلقبها بالحمراء . كانت أقرب إلى الطول ، لأنها كانت تعيب القصر ، كما مرفى كلامها عن لسيدة صفية ، وكانت فى صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خاليًا يحسونها فيه . قالت فى حديث لها مشهور « . . وأقبل إلى رهط الذين كانوا يرحلون لى - أى يحملون الرحل على العبير - فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقمة من الطعام فلم يستكثر القوم نقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شىء من السمنة كما جاء فى كلامها فى حديث آخر : « . . خرجت مع النسي عليه السلام فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال عليه السلام للناس : تقدموا . فتقدموا . ثم قال . تعالى حتى أسابقك فسابقته فسكب . حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال عليه السلام للناس : تقدموا . فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقنى فجعل عليه السلام يضحك ويقول : هذه بتلك » .

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فمن ثم وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه » .

وعلمنا من رواية وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها فى ساحة الحرب فيسمع خطابها .

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أصحاب هذا المزاج ولا مرأ .

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خلقه وخلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلاً حتى حاء في بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ، وكان بحيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حلة طبع مع حدة ذكاء . وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام ، وكان ماضى اللسان قديراً على فحام من يحترئ عليه ، وتشبهه السيدة عائشة في هذه الخلائق شهاً كان يوحى إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تحيب من يساجلها أن يقول . إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر .

وقد راصت حدتها زمناً كم كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا . ومكان الفتاة من الضعف ومن الخطوة التي تغيبها عن الصرامة في معاملة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة .

والمعهود في أخلاق الناس أن الجدة تلازمها سرعة الغضب ، كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان

وليس في أخبار السيدة عائشة ما ينافي هذه المشاهدة التي نعم النساء كما نعم الرجال ، وليس مما ينقصها أنها رضى الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك . طول حياتها ، فلم تنس مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على

من الفتنة خاصة ، ولا أوجع لصميرها ، من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهاءتها ، ويغدها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تنوأتها ، وأهل ما يكون ذلك على السريثة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر طمعه فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلأثها ودوافع صميرها . فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضعينة الدائمة

حدث مسروق الهمداني قال « دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي بنتاً له ويقول :

رَرَأْتُ حَصَانًا مَاتَرَزُ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ عَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

فقالت عائشة لكن أنت لست كذلك فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، فقالت : أما تراه في عذاب عظيم ؟ قد ذهب نصره .

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضى السيدة عائشة .

على أنها قبلت عذره ، كما جاء في رواية أخرى ، ونهت عن شنمه وذلك فيما روه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول كتب أطوف مع عائشة بالبيت ، فذكرت حسان فسسسه ، فقالت : بش ما قلت ! أتسنيه وهو الذي يقول .

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِيسَى لِعِزِّ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

فقلت : أليس ممر لعن الله في الدنيا والآخرة بما قل فيث ؟
قالت : سم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَائِزٌ بِرَيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عَنِّي قُلْتُهِ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنْتَ مَلِي
وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعدًا عند عائشة ، فمرَّ
بجنازة حسان بن ثابت ، فقلت منه ، فقالت : مهلا ؛ فذكرتها
كلامه فقالت فكيف بقوله

فَأَوْنُ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي لِعِرْصِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن
الذي صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصصح ها أولى
من ملاحظة التذكير والتبكيث .

أما كرم السيدة عائشة فيه إلى السيدة أقرب منها إلى السخاء ،
وهي فيه على أسال من أبيها العظيم رضي الله عنه ، تنقد من الأسر وتغيث
من البلاء ، وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها
العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه
السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه ، أو في
أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور .

كان لعتبة بن أبي المهلب حاربه حبشية سمها بريرة زوجها
على غير رصاه عبدًا من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ،

وهي أمل لمن هو أصلح وأدب منه . فرحمتها السيدة عائشة
فاشترتها وأعتمتها ، وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها .
ملكك نفسك فاخترى ؟

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه .
فتعجب النبي بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدا فيه ،
وقال لها : اتقى الله فياه زوجك وأبو ولدك ا قالت أنا مرسى ؟
قل : لا . إنما أنا شافع فقالت إددن لا حاجة بي إليه .

ومارالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر
لها عظمها عليها ولا تنسى لها جميلها

وقد أعانها على هذا الحلو السمع أنها رقت القدوه الصريبة
بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من
شأو بلغته في هذا لمعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى
منه وأحمل . كانت عندها فتاة يتشمة اسمها الفارعة ست أسعد
فزوجتها لنبيط بن جابر الأنصاري ، وسارت معها في رفاقها إلى
بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو
فياه يُعجبُ الأنصاري ؟ هلاً بعثتم جاريةً تصربُ بالثف وتعنَى ؟
فسألته : ماذا تقول يا رسول الله ؟! قال : « تقول أتيناكم أتيناكم
فحيونا نحبيكم . ولولا الذهبُ الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا
الحنطة السمراء ما سمنت عذارىكم » .

وحدثت مولاتها أم درة - وهي من الثقات أن ابن الزبير بعث
إلى السيدة عائشة بعرارين فيهما مال يلع مائة ألف درهم ،
وكانت صائمة . فدعت بطلق فجعلت تقسم في الناس ثم
أمست فقالت : يا جارية هاتي فطري . قالت أم ذرة : أما

استطعت فيما أنفقت تشترى ب درهم لحمًا تفطرين عليه ؟ فقالت :
لا تعنّفيني ! لو كنت أذكرتني لفعلت

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير . رأيت عائشة تصدّق
بسبعين ألفاً ، وأنها لترقع جانب درعها .

وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان روايتها
من الثقة أنها رضى الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى
مستحقّيه .

وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه
الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ما تكون
به فى خصلة الصدق التى بها اشتهر ومن أجبهى بعث بالصديق ،
وغلب هذا البعث عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى
دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها فى مارق عسيرة البلاء للنفوس
فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا
المبراث النفس من أبيها العظيم . ففى العاشية التى أطبقت
على العالم الإسلامى من حراء الخلاف على الخلافة تطايرت
الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك ، وتعمد أناس أن يصوغوا من
عندهم حديثاً لكل حزب يصبره ويرصيه ، ويكتب خصمه
وينخرجه . وافتن الوضع فى محاكاة الأحاديث النبوية ذلك
الافتنان الذى شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين ،
وكانت السيدة عائشة تشترك فى حصومات المنخاضمين على
الخلافة باختبارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كرهٍ منها ،
وكانت هى أول من يُسمع له إذا روى حديثاً يدمع خصومها ويعرر
أبصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبتت نسبه إليها حديثٌ

وحدًا تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد
الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء
تلك الورع النفسية التي نظيش بالألسنة أو بضلل العقول ، وهو
امتحان ليس أعسر منه امتحان في هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون
عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق !
ومن الصفات التي شابهت فيها ناه الذكاء المتوقد والسديهة
الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه .

بل لا يحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال
والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة
بكل ما يقع في متناول ذهنها .

قال أبو الزناد : ما رأيت أحدًا أروى لشعر من عروة بن الزبير .
ف قيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتي في رواية عائشة ! ما كان
ينزل بها شيء إلا أشدت فيه شعرًا .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حبًا لحالته السيدة عائشة
وإعظامًا لها وتوقيرًا لسيرتها ولكن الذي روى عنها من الشواهد
الشعرية في أخبارها التي نقت إلينا يدل على صدق ما وصفها به
من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد .

دخل عليها النبي عليه السلام وهي تتمثل باليتيم التاليين .
ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لَا يَخْرُبَنَّكَ ضَعْفُهُ يَوْمًا فَتَذَرُكَ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَا
يَجْزِيكَ أَوْثَقُنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنْ أَتْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى
فقال عليه السلام : لقد أتاني جبريل برسالة من ربي : «أيما
رجل صنع إني أحياه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه
والدعاء له فقد كافأه » .

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لَعَمْرِي مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَحَتْ يَوْمًا وَصَاقَ بِهَا لَصْدَرُ
وعادت تقول :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

ومما يروى أنها أشدته في تلك الساعة وهي ولهي لفراق أبيها
وَكُنْ ذِي غَيْبَةٍ يُوُوبُ غَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُوُوبُ
ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر رهير
وتعجب به . فقالت لإحدى بناته فما روى الهيثم بن عدي
«إن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر»

على أن المهم والحفظ مدكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو
قلت الشواهد الشعرية التي وصلت إلينا من أخبارها .

فحسبها أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في
مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية
والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة .

بل حسبها أن ثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث لنسوبة
ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله
بحروقه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحفظ في
فهمها وحفظها بكر ما أحاطت به الأحاديث من المعارض
والمناسبات .

ومع هذا يروى الشقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتمسر ولا
يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات . قال أبو موسى
الأشعري ما أشكر عينا أمر فسلطنا عه عائشة إلا وحدثنا

عندها علمًا فيه . وقال عطاء بن أسي رباح . كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيًا في العامة . وقال مسروق الهمداني . رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكاير يسألونها عن الفرائض . وقال عروة بن الرسر . رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : حذوا شطر دينكم عن هذى الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مرء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام .

ولا ريب أنها كانت تقتدي بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفد من بعض المقول عنها أنها كانت توافقه إلى معرفة كل ما يعرف من تواريخ الأمم غير قابعة بأخبار الأمة العربية . ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كـ أخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده ، فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنفائس ليطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ علي ملكي فأخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه »

فحفي على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها ، وهو أن هذا النجاشي كن من الأمراء لمعصوين فأقصاه الملك العاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد إلى ملكه ، فاقضى الرجل الذي اشتراه حقه ، وأبى هذا النجاشي إلا

أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك إذ يقول . ما أخذ الله منى رشوة حين ردّ على ملكى فأخذ الرشوة فيه . وهو تفسير لا يعينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذى يعينا منه شغف لسدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع .

وغزارة الاطلاع بينة إلى جانب هذا - من لغة السيدة عائشة التى امتزجت بأسلوبها فى كل ما نقل عنها ، ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تنهياً بغير محصول كبير من أنباء العربية التى تستقى من أعراف مصادرها

قالت فى خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها : « . وأبى ثانى اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمى صديقاً ، مضى رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، وقد طوّقه وهَقَّ (١) الإمامة ، ثم اضطرب حَلُّ الدين ، فأخذ بطريقه ، وَرَبَّقَ (٢) لكم أثناؤه ، فَوَقَّذَ (٣) النفاق ، وغاض تبع الرُّدة ، وأصفأ ما حشَتْ يهود ، وأنتم يومئذ جُحُظ العيور ، تنتظرون العدة ، وتستمعون الصيحة ، فَرَأَبَ (٤) الثأى (٥) وأرزم (٥) مسقاء ، وامتاح من المهواة ، واحتهر دُفُ الرّوء (٦) حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعَلَّ (٧) الهل فقصبه الله واضئاً على هام النفاق ، مُذَكِّباً نارَ لحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم

(١) حل يجعل فى العنق (٢) ربقه شد برقبته شده فى الرقيق وهو حسن به عرى

(٣) كسر (٤) أى رقع الفتى وأصلح الحلل (٥) أى شده

(٦) امتاح من المهواة أى استقى من البئر العميمة . و حهر دُفُ الرّوء أى أخرج حبايا الماء العرير

(٧) الهل : أول الشرب . والعلل السقى بعد السقى .

بحسبه . فولى أمركم رجلاً مَرُوعِيّاً إذا ركن إليه . بعيد ما بين
اللابئير عركة^(٢) للأذنة ، بجنبه صفوحٌ عن أذاة الجاهلين ،
يقطان الليل فى نصرة الإسلام .

ووصف أناها فى حطة أخرى فقالت : «رحمك الله يا أبت ا
قلبي أمة من الدنيا لقد أقمت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم
صدعه ، ورحت حوابه ، وانقضت عما إليه أصغوا ، وشمرت
فيما عنه وبو ، وستصعرت من ديناك ما أعظموا ، ورغبت
بدينك عما أعملوا ، طالوا عنان الأمر واقعدت مطى الحدر ، فم
تهتضم ديناك ولم تنس عدك ، ففاز عبد المساهمة قدحك وخف
مما استوزروا ظهرك .»

ووقفت على قبره قائلة - وهو كلام يستعرب تسيق فواصله
وترجيع صمائه ولكنه لا يستبعد على عصره

«بصر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت
للدنيا مذلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن
كان أحلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك وأعظم مصائب
بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعدّ بالعزاء عنك حسن العرض منك
، فأنا نتجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك . وأستعيضه منك
، بالدعاء لك قيانا لله وإنإ إليه راحعون .وعليك السلام ، ورحمة
الله توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك» .

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه ، كما كان
لها فيما يحوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير .
فلما حكى عن رواجها بالنبي قالت بأسلوب مرسل سهل ولكمه

(١) كناية عن سعة الصدر (٢) من المعركة أى الاحير

من ذلك جزل فصيح : « ... تزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فوقى حميمه^(١) ، فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعى صواحب لي وصرحت بي . فأتيتها لا أدرى ما تريد بي ، فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن بصلحن من شأني ، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ صحى ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين . . . »

ومع هذه المادة اللغوية التي تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق مصادرها لا يستغرب ما تواترت به الروايات عن علم السيدة عائشة بطل زمانها وما يصح في زمانها أن يعرفه يعدم الملك والظواهر الجوية لإمامه بمسالك النجوم ومهابل الأبرار وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية .

وهكذا تنظر عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشة في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية ، لأنه مكان قد استشفته لنشأتها في قبيلتها ودحولها في دينها ، واستحقته كذلك بما تميزت به بين أئربها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

(١) العجة : مجتمع شعر الرأس

زوج النبی

كانت السيدة خديجة - رضى الله عنها - أول زوجات النبی عليه السلام ، وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها ، ولا فكر فی الزواج بغيرها فی حياتها . مع أنه بی بها وهو فی نحو الخامسة والعشرين وهی فی نحو الأربعین ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستین .

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ، فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطل الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطل ذكراها ، وسمى عام وفاتها «عام الحزن» ، لأن الحزن لم يفارقه صوال أيامه ، ولم يفارقه - فی الواقع - بقية حياته كلها ، وإن سكبت منوره مع الأيام كما نسك كل سورة لاعحة مع ذلك العرم الصادق والقلب الصور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة سنوات .

فكان التقابل بين الزوجين من أتم ما تأتي به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الحلو من القصد الحمى وإن لم تتجه إليه السية فی وضوح

ويبدو لنا أن النبی عليه السلام كان أخرج إلى هذا التقابل العجيب فی حياته الزوجية .

فالتى اليتيم فجع فی حنان لأومة مند الطفولة الساكرة لم بكر أنفع له من زوجة كريمة وشيدة كالسيدة خديجة التى

أغدقت عليه من حنان الأمومة مافات في بواكير الطفولة ، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة في سريرة النفس ، لا تزال بين الحلاء والغموص وبين الإقدام والإحجام ، ولا تزال في هذه الحالة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع .

أما النبي في الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التي تظفر منه بالحظوة والمودة ، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وربيعاً يظله في وحشة عمره .

كانت خديجة أمّاً ترعاه .

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله .

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خديجة قبل الدعوة وهو يطلب الانتصار في طوية النفس قبل أن يطبهم في عالم النضال والسلا .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت .

كان تقابلا بين الزوجين الفُصْلَيْنِ من أعجب ما تأتي به المصادفة . بل من أعجب ما يأتي به التدبير ، وليس هناك تدبير معروف .

والذي نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن تُقترح عليه .

هم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : «أريتك في المنام مرتين ، أرى أنك في سرقة من حرير ، ويقال : هذه امرأتك ! فأكشف عنها فإنما هي أنت فأقول . إن يث هذا من عند الله يُمّصه »

ولكن الحديث يدل على مبلغ ما كان في صمسر النسي عليه السلام من هذه الية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه لسلام يباحي نفسه الشريفة فأمنيته في الزواج ، طابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا .

فأما الحظوة والذي تعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة نارة ألمها ما لحظته من حزن على روجه العزيرة عليه فقالت له : أي رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها من ؟ فقالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ثم سألها عن المكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليّ » . . . وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة فأوفدها إلى بيت أبي بكر . وحررت الخطبة بعد ذلك في محراها الذي انتهى بالروح بعد سنوات

هذه السيدة هي حولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مطعون من أحلاء الصحابة الذين حرموا الحمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . ونقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان - أم عائشة - فبادتها بالحديث قائلة : ما أكرم الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذلك ؟ قالت : رسول الله أحطب عليه عائشة . فاستمهلنها حتى ترى أم بكر وقيس إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر ، وهل تصحح له وهي

بنت أحيه ؟ يظن أن المؤاحاة بينه وبين النبي قد بلغت مبلغ القرية
التي تمسح المصاهرة . فكان حوار النبي بها « قولي له أنت أحي
في الإسلام وانتك تحل لي » ، كما جاء في هذه الرواية

والى هذا الحسين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق
الصلات ستعقد بين النبي وصفيه الحميم لأن عائشة كانت
مخطوبة قبل ذلك لحسر بن مطعم بن عدي من أصحاب أسها في
الجاهلية فتخرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما
ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط
ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألها فيما ينتويانه فأقبل الأب على
امراته يسألها : ماتقولين ؟ فالتفتت الأم إلى أبي بكر وهي تقول
متعلقة : لعننا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبئه وتدخله في
دينك الذي أنت عليه ! فلم يحبها وسأل زوجها : ماتقول أنت ؟
فلم يزد على أن أجاب : إنها تقول ماتسمع .

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم بنى
عدي ، واستقبل النبي مخاطباً ، فتمت الخطبة في شوال سنة
عشر من الدعوة قبل الهجرة ثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه
السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات

وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم رُفَّت إلى النبي عليه
السلام في السنة الثانية لهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها
بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرارة فيه بين قوم لم يعمدوا تسجيل المواليد .
إد قلماً يسمع بإنسان - رجلاً كن أو امرأة - في ذلك العصر إلا
ذكر له تاريخاً أو ثلاثة سميلاده أو زواجه أو وفاته ، وقد يبلغ

الاحتلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلاً عن
الخطمين عشر منين .

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي
عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير .

فقد جاء في بعض الموثيق من طبقات ابن سعد أنها خطبت
وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الرفاق كما هو معلوم إلا
بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال .

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي
في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول . إذ لا
يعقل أنها تشفى من حالة الوحدة التي دعته إلى اقتراح الزواج
على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو
خمس سنوات أخرى .

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة
كانت محطوبة قبل خطبتها إلى النبي ، وأن خطبة النبي كانت
في نحو السنة العاشرة للدعوة .

فإما أن تكون قد خطبت لجسير بن مطعم لأنها بلغت سن
الخطبة ، وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تعقد
الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين .

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق
أحياناً بين الأسر المتألفة ، وحيث يكون أبو بكر مسلماً عبد
ذلك ، ويستبعد جداً أن يعدها بها فتى على دين الجاهلية قبل أن
تتفق الأسرتان على الإسلام .

فإذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ،
فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تماهز العاشرة يوم
جرى حديث زواجها وحطبها النبي عليه السلام .

ولهذا يرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم
زفت إليه . وأنها هي - رضى الله عنها - كانت تسمع تقديرات
سها من كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة ،
فكان يعجبها على سة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصعرها ، وكانت
هي كثيراً ما تدلُّ بالصعر بين أترابها فلا تسمى إذا اقتضى الحديث
ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ
صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها
في هذا المعنى .

ذلك هو التقدير الراجح الذي يسمى ما نقولُه المستشرقون على
النسب بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة ، وكل تقدير
غير ذلك فهو تقدير مرجوح .

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى ،
لأنها كانت تدلُّ فيه بمكانة الروجة المحبوبة عند روجها العطوف .
ومكانة البنوة الناشئة عند لأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق
العزير التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين السبي والصديق
من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء
والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة .

وفد سجلت لنا السيدة عائشة حطرات نفسها خطرة خطرة .
ووصفت لنا في بيتها الحديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية ،

ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أويين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النسي كل صبية مسلمة في سبها الساكرة . لأن عطف محمد ﷺ هو اعطف الغامر الذي لا يلحق إلى عطف سواه ، وقد أعنى زيدا عن أبيه وأمه فأثر حباة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأخر بمثل هذا العطف أن يعنى الفتاة التي تأوى إليه ، فتلوذ منه بعطف روج وعطف ب وعطف صديق .

وتركها على سجيته تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما حاءها صواحبها الصغار « فينقمهن - كما قالت - من رسول الله ، فكأن عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها » .

وقالت جاريته بريرة نصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها . « ما كنت أعيب عليها شيئا إلا أنها كانت حارية صغيرة أعجن العحين وأمرها أن تحفضه فتنام فتأتى الشاة فتأكله »

وكان عليه السلام يسعدها بما يسرها ، وإن عجب الصحابة الذين لا يهمون وقار لدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان في يوم منى ولبنى عليه السلام مصطجع مسجى في ثوبه ، فصاح بها أعمد رسول الله بصنع هذا ؟ . فكشف النسي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد

وكان السود يلعسون في يوم من أيام العيد بالدق والحراة فسألها عليه السلام : تشتهين أن تطري ؟ قالت : نعم قالت

« فأقامنى وراءه حدى على حده وهو يقول . دوكم يابسى أرفده .
كيسة الحبشة - حتى إذا مللت قال . حسبك ؟ قلت : نعم !
قال : فانهبى » .

وربما مر أبوها عليه السلام بالبیت فيسمع صوتاً عالياً في حضرة النبي
عليه السلام ، فبدخل غاصاً يتناولها ليلصمها ويهرها قائلاً : لا
أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام
ليحجره ويقول لها بعد خروجه رأيت كيف أبقدتك من الرجل ؟
وفى مرة من هذه المرات خرج أبو بكر معضماً ثم عاد فوجداهما
قد اصطلحا .

فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتmani في
حربكما .

فقال النبي : قد فعلنا .

ولم يخف هذا العطف الذي لا نظير له بين الأرواح على السيدة
عائشة ، وهى ماهى فى ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها
واردات به علم يوم شاركها الرميلاب فى بيت السبي ، وقد
شاءت الدواعى السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته ، وتتعدد
صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية . فقد عرفت
مكانها وهى بين تسع من الزميلات ، كما عرفت مكانتها وهى
موشكة أن تنفرد فى بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها
وبين زميلاتهما فيما يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستعفر
الله فيه قائلاً : « اللهم هذا فسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما
تملك ولا أملك » .

وشكرت له هذا الإيثار ، ومحرت به في معارض حديثها كلما بدأ لها معرض للشكر أو بليتحدث بعممة الله عليها . فقصر عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشرة اللواتي احتمنن فتذكرن أوصاف أرواجهن من خير وشر ، وكانت الحادية عشرة منهن - وهي أم زرع - مُحِبَّةً لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الأرواج في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة : « بأسي وأمي لانت يارسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مراياها التي اختصت بها دون أترابها : « فضلت على نساء النسي ﷺ بعشر ! لم ينكح بكرة قط غيري ، ولا امرأة أمواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتني من السماء في حريرة ، وكنت أعتسل أنا وهو في إباء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من سائه غيري ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري ، وفبض وهو بين سحري ونحري ، وفي الليلة التي كان الدور على فيها ودون في بيتي » .

وكان هذا التمييز سر البيت النبوي في مبدأ أمره ، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها لبيعث بها إلى النبي وهو في بيت عائشة .

فوقع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة ، فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما أثقلت عليه قال لها : « لا تؤدبنني في عائشة . فإن الوحي لم يأتي وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » . يريد بالثوب البيت في

بعض التفسيرات ، ومن قولهم ثاب إليه يشوب فهو في الشوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضى الله عنها لما يعلمن من قول أبيها لكل شعاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إِنَّ نَسَاءَكَ يَشُدُّكَ اللَّهُ الْعَدْلَ فِي بَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ . قَالَ لَهَا : يَا بَيْتِي ! أَلَا تُحِبُّينَ مَا أَحَبُّ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَأَحْسِي هَذِهِ . »

يشير إلى عائشة .

ويسير على الرميالات المتنافسات أن يدركن حب النبي لعائشة ، ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده .

ولكن الذى لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هي رضى الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاداً إلى نفسه و اتصالاً بقلبه ولبه .

فكلهن كن بحبيبه ويتنافسن على قربه ، ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أَسْرَعُكُمْ لِحَاقًا بِي أَطْوَلُكُمْ يَدًا » . . فجعل يقسن أيديهن ، وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة أيد الطولى . ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح . فعبطن زميلتهن زنب بنت ححش . لأنها استحققت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مسنحيها .

إلا أن الحب الذى يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها . ومن

نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ، ومن عاشرته في روحه
وطوبته كما عاشرته بروحها وطوبتها وفي كلامها من الشاهد على
ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل
ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت . وليس أدل على اقتراب
الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن فكان إيثار
النبي لها خراباً من العدل على هذا الاعتبار .

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها .

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرحلها ، وكانت
تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره .

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتضعي إلى ترتيل حديثه كما
يسرها أن تستوضح معناه لأنه كما كانت تقول لسائلها - لا
يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عدّه العادّ
لأحصاه » ..

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفت لها امرأة على زوجها ، وربما
خرج من عندها في ليلتها ، فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب متخافة
أن يلم ببیت زميلة من رميلاتها ، ووحدة في ليلة من هذه الليالي
قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء ، ويستغفر لهم ، فعادت إلى
بيتها تقول لنفسها : بأسى أنت وأمي ! أنت في حاجة ربك ، وأنا
في حاجة الدنيا ! ولكنها لبشت مكروبة الصدر مما خامرها من
خاطرها الأول ومن خطأ ظنّها . فدما قفل عليه السلام إليها لحظ
ما بها فسألها ما هذا النفس يا عائشة ! قالت . بأبى أنت وأمي !
أيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قممت قلبستهم .
فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعص صويحبانى حتى

رأيتك بالبقيع نصع ما نصنع . . . وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة أعرت ؟ قالت : وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟ فقال : لقد جاءك شيطانك !

ولم تس قط أن تتحلى بما يروق من مرأها فكانت تس لمعصفر والمضرج ، وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية ، ودخلت عنده امرأة وهي معصفره فسألته عن الحناء ، فقالت : شجرة طيبة وماء ظهور وسألته عن الحفاف فقالت لها : « إن كان لك روح فاستطعت أن تزعى مقلتيك فصعبيهما أحسن مما هما فافعلي » .

وهو الحائر - أو ربما كان الواقع - أن زميلاتنا أمهات المؤمنين كن يعرف على النسي مثل غيرتها ، ويجهدن في رضائه مثل جهدها ولكن لا ريب - لم يبلغن شأوها في حبها إليه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالدهة والشعور ، وليس في أحاديثهم عند مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب ، وذلك الصدد إلى الطوية ، وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث ، وربما كان تعديل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليهم وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها ، ولكنها مسألة الرفق في الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيعاء والشعور الساطع بقلة حواجر بين النفسين واتصال الحس بينهما واللقانة .

ومن البديهي أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب أسى وفهمه طهرة واحدة ولا في سنة واحدة أو سنتين بل لبثت السنوات الأولى

من عشرتها له وهي تقترب من الأس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقى إلى عظمته ونبله . . حتى أدركت ما يتاح بها أن تدرك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هي - ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوى كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيص ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعى المسسّر في الإخلاص .

ومصت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت في حديث لإفك ، كنت «جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . . والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ، ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركه في العبء الذي يسقى أن تهض به روجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسأله في أمور الدين وآداب الروحية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء ، فوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعر الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال

سألته أسماء بنت شكل من ساء الأبناء كيف تكون الطهارة من المحيص ؟ فقال لها . « خدي فرضة ممسكة فتوضئي ثلاثاً » ، أو قال تطهري ثلاثاً . . فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان

الله ! نظهرى بها ، وأعرض بوجهه حياء . فاحتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضى الله عنها تعي من سنن النسي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليث - أما بعد ، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ التَّمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ يَسْخَطِ النَّاسُ كِفَاهُ اللَّهِ مَوْتَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ التَّمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ يَسْخَطِ اللَّهُ وَكَفَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ » .

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب وهو أكرم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فما تورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي نسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب نتائجها ونسبها من المسترشدات والمسترشدين ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوبا غير هذا الأسلوب ، ولو عرصت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع في سنن النبى ومأثوراته وأعماله فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للصياح .

ولقد تكون هذه السيدة المفصلي متى أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في لربصاع أن يراها إلا بعد مراجعة النسي عليه السلام فأسلوها في تفصيل السن النسوية والقواعد الشرعية إنما كان مريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان

ودامت هذه الحياة الزوجية المادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأنك لا تعرف من أرواح الهدوء والعظماء من ظهرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها

ففي طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين

وأخطر ما ألم بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك وعضب النبي من روحته جميعاً لتنازعهم في فترة من الزمن والحافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة .

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله ، وأسفر عن خير ما تطمح إليه الروجة من حنو ومسامحة وعرار . وأما غضب النبي من روحته لتنازعهم والحافهن في طلب النفقة فعارض مصى مره ومضى أمثاله عشرات المرات في كل حياة روحية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن

على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ، لأبهن قدوة في
القناعة ومغالبة الهوى ، وسن يقلوة في الترف ونعمة العيش .
وقد خبرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن
فاخترن أجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سعة الأنبياء
وأمهات المؤمنين .

ومما لاشك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسى في هذه
الحياة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من
الذرية التي كانت تتوق إليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعد
ما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدا وترديده
لذكرها لأن له البنين والبنات منها .

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة : كل
صواحبى لهن كنى ! . . قال فاكتنى بـنك عبد الله ! يشير إلى عبد
الله بن الزبير ابن أختها أسماء . . فجعلت تكتنى به وتحبه ذلك
الحب الأموى الذى يستمد القوة من الحو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضى الله عنها لم تحمل قط إلا رواية
جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت لهذا
كنى بأم عبد الله

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ،
فكان فى هذا البداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد انذرية ، ولا سيما إذا أحببت الزوج
الذى تود أن ترزق منه انذرية ، ولكنها إذا التمسست التهوين فلن
تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلها من شعورها بعطف زوجها عليها ،
وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيد الذرية التى تتمناها

قلنا في كتابنا عبقرية محمد . « لسا بدرى لم طالت الفنة
التي مضت على أزواج النبي جميعاً غير عقب . ولكننا لا نستبعد
تعليلها باحتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثل هذه
الأحوال فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات
عنها عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد نبلعها المرأة
ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيمب بعدها ، أما أزواجه الأخريات
اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن
الأوليس خلقاً غير رملة أم حبيسة وهند بنت أمية المحزومية ،
وهذه كانت مسنة يوم بى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا
يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ماعداتين لم يلدن للنبي ولا
لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة بيس بالعجبة المعضة التي
يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك
الأغراض العامة التي أحملهاها في الفصل السابق ولم يتحرر منها
النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن بل
معظمهن - قد لقين من الشدائد والمحاووف وعناء الهجرة البعيدة ما
يعقم الولود فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة
السيوية التي أشربا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتعال النبي فيما
بى الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع ودرء لأخطار - لم يكن
فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل »

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها يدعونا سياق
التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في طواهر حياتها
البيتية ، إن كان للعلم كلمة تقال في هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات وقد كان من المحتمل - بل الأرجح أن السيلة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام .

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرد لزماً في أحوال النساء عامة فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليقه إلى العلم والمشاهدة .

والعوارض التي نستطيع أن نهتدي إليها في تاريخ السيدة عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هي في بعض أحاديثها وأنها كانت توعك من حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكت حين قدمنا المدينة شهراً ، والناس يميصون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك .. ويرينى في وجهى أنى لا أعرف من رسول الله اللطيف الذي كنت أرى منه حين أشتكى . فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى » .. وقد علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوحت بحبر محزن أو مغصب تصاب بحمى نافض كما يصاب الدين تعاودهم حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر وتتجدد لها معاودة تنهك الجسم رححوا أنها البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى أرجح ، لأنها كانت فاشية بأعراضها المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك

عن نبيه ﷺ ، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم وذلك قبل أن يصرب علينا الحجاب فأذن لي ، فدخلت عليهم وهم في بيت واحد ، فقلت : كيف تحمدك يا أبت ؟ فقال :
 كُلُّ امْرِئٍ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ
 فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول .

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تحمدك يا عامر ؟ فقال :
 لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفُهُ مِنْ فَوْقِهِ
 كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوِّقِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ
 قلت : والله ما يدرى عامر ما يقول :

وكان بلال إذ أقبلت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :
 أَلَا لَيْتَ شَغْرِي هَلْ أَبْتَنَ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلَى إِذْ خَرُّ وَجَلِيلٌ^(١)
 وَهَلْ أَرَدَنَ يَوْمًا مِثْيَاءَ مَجْنُونٍ وَهَلْ يَدُنُوزُ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلٌ^(٢)
 قالت عائشة : « فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : إنهم
 يلهدون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حبب إلينا
 المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها
 ومُدّها ، وانقل حُمّاها فاجعلها بالحنيفة » وهي في الطريق من
 مكة إلى المدينة

فإذا كان حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون
 العاشرة وطلت عفايلها تعاودها فأيسر ما يقال لها إسا حيال
 عارضى ذى نال يلتفت إليه في تعليل ما أسلفناه

^١ سمان في وادي مكة أحدهما رهو لإدحر طيب الرائحة والآخر الشمام

سبلان مكة

و سألت أفاضل الأطباء فى ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطى الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها . قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبی علیه السلام فى بيته أنه كان لا يشبع من حبز البر أو الشعير ثلاث ليال متوالات ، وأنه لم يشبع من خمز وزيت مرتين فى يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيرون من المطاعم إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التى لا يعدوها النظر فى بحث هذا الموضوع ، فإذا صححت مع هذا رواية السقط فهى دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة .

وأيًا كانت هذه العوارض فهى كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التى تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضى الله عنها من نعمة الذرية ، نلّم بها ، لأن الإمام بها لا غنى عنه فى هذا المقام



وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذى لا شك فيه أنه لم يكدر صفو ابودة والبر بين النبى وأهله ، وأنه لم يمس هذه الحياة الروحية أن تكون ودوه للممتدين فى العطف وأدب المعشرة . وكانت هى العروة الوثقى كما وصفها النبى عليه السلام . فإذا سألت السيدة عائشة عن الصفة والهيئة ممثلة بمكانها عنده وعطفه عليها : كيف حال لعروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدى لا تتغير

أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة - رضي الله عنها - فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

فهي وزميلاتها كن يتغayرن ويتنافسن لا محالة كما تتغayر النساء في كل مكان ، ولكسهن لم ينسين قط أنهن نساء نبى يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من عصه .

فقصارى ماسمعهاء من فلتات الغرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة . « إنها عجوز حمراء الشدقين » ، ثم يعاتبها النبى فتندم ولا يعود إلى مثل هذه المقالة . . أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها قصيرة فاستكر النبى هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر إذا مرجت به . فلم تعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد فى الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الصرة المحققة فلم ينس فمها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام فى حديث الإفك فاستعاذت بالله وقالت : « أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً »

وأحسّت سودة إحدى زميلاتهما أمهات المؤمنين أنها أسنت وضعفت ، فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون فى مِلاخها من سودة »

فكل ما روى لنا من تغayر زوجات النبى إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبى يتأدبن بأدبه ، ولا

يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كفه ورعايته ، وإن تسع أحوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ليقع بينهما من شحناء الغيرة إذ اجتمعن في بيت أسرتهن أصعاف ما روى لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة .

أما قرابة النبي فأعزها قدرًا عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيتها .

وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعًا على أكمل ما ترصاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها .

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه - عليه السلام - كما هو العهد بأبوته الشريفة التي تشمل الناس جميعًا بالحنان والمودة فضلًا عن بناته وبنيه . وسئل - كما قالت عائشة مرة - : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ثم سئل . ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلطفهما ويوصي بهما ويسميها ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهي كذلك بت خديجة التي نfst عليها عائشة قديم مكنتها وطويل وفاء النبي لذكرها .

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه ولكنها شركة بين كريمتين

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أرفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهما وبين عائشة فقبلت الوفادة .

وربما حطر للسيدة عائشة أن علياً عليه السلام قد تأثر بهذه المنافسة
يوم سأله النبي في حديث الإفك فقال : « . . لم يضيق الله
عليك والنساء سواها كثير » .

ومن الصديق للتاريخ وللطبع للإنسانى أن نلاحظ هذه الأمور ،
لأن الطبع الإنسانى لن يدع حقوقه على أناته ، ولن يكون
الإنسان من لحم ودم إلا إذا كان فيه لحوم والدم نوازعهما التى لا
فكاك منها ، وإن راضها أدب النسوة ونسل العشيرة ، فثابت إلى
أكرومة تجمل بالكرام .

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قد كانت صلة الأدب والتجمل
والمجاملة ، ولكنها كانت فى مجال لا يغيب فيه التنافس على
العطف والإعزاز .

والمثل هنا أيضاً قدوة المقتدين فى الأسر العيا التى عرفها
التاريخ . سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهى على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة
عائشة منزلة الزوجة المدللة فى طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة
المعينة فى عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها فى هذه
المعونة حمادى ما تلغى شريكة حياة ، فحفظت من تعليم النبي
ما لم يحفظه أحد . وحفظ عندها النبي أعلى الودائع من بعده :
صحف الكتاب وسسته المشروعة لتابعيه .

حديث الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التي أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول ، زعيم المدينة الموتر الذي لم ينس قط حقه على النبي ولا على الإسلام والمسلمين .

وحديث الإفك هذا هو الحديث الذي اجتمعت له كل بواعث الفصول والوشاية التي تغرى السنة الناس بالخوض فى أمثال هذه الأحاديث ، ولو كانت من نسج الخيال واختراع القصاص فمن دأب الناس قديماً أن يتطلعوا إلى الأسرار ، ويكثروا القيل والقال فى الوشائيات .

وهم أشد تطلعاً إليها وكلفاً بالقليل والقال فيها إذ اشتملت على وشية من وشائيات الرجال والنساء ، ولولا كلفهم بهذا لما اخترعت لهم القصص والروايات التي يقرءون فيها أحبار رجل لا وجود له وامرأة لا وجود لها ، وهم يعلمون أنهما من نسج الخيال ولكنهم أشد من ذلك تطلعاً إليها ، وكلفاً بالقليل والقال فيها ، وإذا هي تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء

ثم يبلع التطعن أشده والكلف حده إذا كان لأحد من الناس غرض فى ترويج الإشاعة واللفظ بها ، والاسترسال فى ذيلها وحواشيها .

فإذا كان هذا الغرض على اتصال بالعصبية القومية ، والعقائد العامة التي تصطرع حولها الأهواء ، وتصطرم فيها الصعائن ، ويطول فيها جدل المصدقين والمكذبيين ، ونراع المحبين والمبغضين ، فقد اجتمعت للقصة - كما قلنا في صدر هذا الفصل - كلُّ بواعث الفضول والشايات ، وأحاطت بها كل مغريات اللفظ والتشهير .

وهذا الذي حدث بحذيره في حديث الإفك الذي تولى كُثره زعيم الخزرج في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول .

فهو حديث وشاية عن رجل وامرأة .

وهما أعظم الرجال وأعظم النساء .

وفى اللفظ به عرض قوى لأكبر زعماء الخزرج في زمانه ، وغرض قوى لكل من يبغى المساس بالنبي ، وبالإسلام كله من طريق المساس بنبي الإسلام .

ولولا ذلك لما سُمع بحديث الإفك ، ولا استحق أن يُصنَى إليه ، لأنه أوهى وأسحق من أن يطول فيه تصحيح وتفيد .

وكأى من رئيس في قومه وتَرَ كما وتَرَ ابن سلول ، واشتمل قلبه على البغض كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبي ، وأحب أن يهدم دعوة من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام ، ولكنه مع كل هذا يتورّع عن رجم المحصنات بالباطل ، ويمسك لسانه عن الخوض في وشايات الدنس لأنها مسبة لا تجمل بمروءة الكرام .

إلا أن ابن سلول لم يكن من هؤلاء الرؤساء المستورعين المترفعين ، ولم يكن له من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينفق

وأن يداهن ، وأن يصطنع الوشاية ويبلغ في الأعراض ، لأنه كان مطبوعاً على النفاق مشهوراً به بين أصحابه وخصومه على السواء .

كان زعيم الخزرج بالمدينة ، فكان ينافس الأوس بها في إرضاء النبي والتزلف إليه ، ثم يحلو بأعداء الإسلام فيؤلّسهم على المسلمين ، ويسول لهم قتل النبي ، ويوعر صدورهم على هذا الدين الجديد ، وكل منتصر له وكل منسب إليه .

وقُبَّيل حديث الإفك بأيام قليلة كانت فئة من الأنصار والمهاجرين تستقى ، فتنازع رجلان منهما على الماء ، كما يحدث على كل مورد يكثر حوله القصاد . فلم يدعها ابن سلول تنقضى دون أن يشير فيها الثائرة التي ودَّ أن تعصف بالمسلمين أجمعين . وقال مستهولاً : أوقد فعلوها ؟ والله ما رأنا وجلاسب قريش هذه إلا كما قيل . سَمَنَ كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعا إلى المدينة ليخرجن الأعراس بها الأدل . وأقبل على من حصره من قومه يحرصهم ويقول لهم . هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . وأما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم !!

وسمى الحديث إلى النبي عليه السلام ، فأسرع إليه ابن سلول يقسم ويبالغ في القسم أنه ما نس بحرف منه .

فالنخوض في الوشائيات والولوغ في الأعراض هو أشبه شيء بأخلاق هذا الرجل الذي مرَّد على النفاق ، وأصبح وأمسى حياته كلها بين الدسر ولاحتلاق ، وله من الوتر العظيم وتر به شفيف عند طبعه السقيم ، لأنه أضاع الملك والتاج بظهور الإسلام .

قال أسيد بن حُضَيْر زعيم الأوس يسأل النبي عليه السلام ألا يدع المدينة لعبد الله بن سلول « يا رسول الله أرفق . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون الحُرز ليتوجوه . فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً » .

فلا جرم يكون له غرض أى غرض فى ترويح حديث الإفك واتخاذ مطعناً فى الإسلام من وراء الطعن فى كرامة نبي الإسلام . ولهذا لم يلبث أن أفلتت منه بيته ، فظهرت من بودر لسانه فى الكلمة التى قالها حين مرّت به السيدة عائشة عى جمل يقوده صفوان بن المعطل ، فقد حكى عنه أنه سأل : من هذه ؟ فقيل . عائشة . قال : امرأة نسيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها !

وإن عرض ابن سلول هذا لهُو بعينه غرض كل متشبهت بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن فى الإسلام ونسب الإسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين .

فمن هؤلاء من غلب أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه : « إن عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة » .

ومنهم من نقل الحكاية وخلطها بالمعجزات التى لا يصدقها غير المسلم . كما فعل واشنطنون إرفح فى سيرة النبي عليه السلام فلم يقطع بنفى صريح ، وترك الباب مفتوحاً للأقاويل .

ومنهم من حاور الحقيقة فى وصف ما جاءت به الروايات ، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبي يوماً كاملاً قصته فى صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء فى كل قصة نقلت إلينا عن

حديث الإفك ، ونعني به روديل Rodwel صاحب ترجمة القرآن ، حيث عرض لهذا الحديث في حاشية على سورة النور .
وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذرا في تعرضهم لهذا الحديث .

لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية ، ولم يحذروا هذا الحذر ، بل جزموا بصحة الحديث ، وقال بعضهم إن محمدا استنزل الآيات في سورة النور ، ليحمي سمعة زوجته ، ويدين الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة . وجهلهم بالقرآن هو الذي أوقعهم في تلك الفرية الوضيعة التي يحبطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها ، فإن سورة النساء ، وهي سابقة لسورة النور ، قد نصت على الأربعة الشهود في إثبات الزنا :

﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْرِكُمْ هُنَّ فِي الذُّنُوبِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾

وأخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ الغزوة التي جرى بعدها حديث الإفك ، ليقولوا إن الليلة كانت غير قمرء ، وإن البحث عن العقد الضائع فيها عسير . مع أن الاختلاف على سنة الغزوة - فضلا عن شهرها وليلتها - كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها ، فجاءوا هم وأخذوا بالقول الذي يعجبهم ويعينهم على فريتهم . وهم حتى في هذ مغرضون متعسفون ، لأن ابتداء المسير إلى الغزوة في الثاني من شعبان لا يسمع أن الجيش قصى أياما في ذهابه وإيابه ، وعاد واليلة قمرء في صحو البلاد العربية ولو كان في الأمر محل

اعتراض من هذه الناحية لما فات الذين حضروا الغزوة وشهدوا
النور والظلام فى تلك الليلة ، وهم قصاص الأثر وأصحاب القمر
فى الحن والسفر ، وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء
المبشرين .

ومن الإسفاف أن يتبع هؤلاء الرشاة فى كل ما خبطوا فيه من
إثم ، وكل ما رجموا به من ظن . كأن أخلاق الناس وحقائق
التاريخ رهن بما يتمحلونه ووقف على ما يختلقونه . وما كانت
وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأى أو ظناً يعتمد على قرينة ،
ولكها كانت كذباً لا يليق بالمؤرخ ، وسوء نية لا يليق بالإنسان ،
وخسة هى حق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم .

وانم أومأنا إلى ضرور من تلك الوشايات لعلم أن الحذر
واجب هنا على قدر ضخامة الأعراض التى تخلق الوشاية وتطلق
فى ترويحها إلى أيماننا هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ، ما دام فى
الدنيا أناس يستبيحون أن يجترثوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها
إلا أنها زوج نبي يريدون التشكيك فيه .

على أننا من الجهة الأخرى نرى السيدة عائشة من هذه
المظنة . ولا نعتد فى التبرئة إلا على الفهم الذى يفهمه المسلم
ومن لا يدين بالإسلام ، ويقله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين
من الأديان ، لأن براءتها ليست من الحياء بحيث لا يقام عليها
الدليل إلا من وحى السماء .

وكفى دليلاً هنا أن ليس على الظنة بها أقل دليل

نشأ حديث الإفك بعد عودة النبي من غزوة بني المصطلق ، وقد كان مسير الجيش في عودته من هذه الغزوة مضطرباً أشد اضطراب ، لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين وزعيم الخزرج أقوى قبائل المدينة ، والرجل الذي جامله النبي عليه السلام كل مجاملة كريمة ، فلم يقلع عن نفاقه ، ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والسعاية .

ففي طريق العودة من غزوة بني المصطلق بحم ذلك الخلاف الذي أشربا إليه عى السقاية من بعض الآبار ، فصاح صائح : يا للخزرج ! وصاح الآخر : يا لكنانة . يالقريش ! وشهر الفريقان السلاح فخرج النبي غاضباً لهذه العصبية التي كره أن يحسبها الخلاف في حيشه وسأل : ما بال دعوى الحاهلية ؟ ثم قال : دعوها فإنها متنة

واغتسم عند الله بن أبي العرصة فطقق يحصاً في النار ويصيح في كل من لقيه : « ما رأيت كاليوم مَذَلَّة . والله إنى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى لمدينة ليخرجن الأعز منها لأذل » . حتى قال لأتباعه : « لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه - يعنى السبي - فأيسمت أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد » ، إلى آخر ما قال وبلغ النبي عليه السلام .

وشع الخبر ، فأذن النبي عيه السلام بالرحيل في ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، وسأله أسيد بن حضير : يا نبي الله ! لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثبها ؟ فقال . أما بلغك ما قال صاحبكم ! يشير إلى كلام ابن سلول .

ثم سار الجيش سيراً حثيثاً ، وحل السبي عليه السلام يصرب
راحلته بالسوط في مراقها ليستعجلها ، وانقضى اليوم وليلته وصدر
من اليوم التالي حتى أذنتهم الشمس ، ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن
وجدوا مس الأرض حتى وقعوا بياماً

ولما أخذوا في المسير هاجت ريح شديدة كادت تدفن الركب
، وحظر لبعض الجند أن عيينة بن حصن ربما أغار على المدينة
في هذه الغاشية لانقضاء مدة المودعة بينه وبين المسلمين
فكان هذا من دواعي العجلة واضطراب مواعيد الرحيل .

ثم دنا الليل وهم على مقربة من المدينة ، فأناخ الركب للراحة
، وذهبت السيدة عائشة لبعض شأبها ، ثم تمقدت عقدها وهي
راجعة فإذا به قد انسل منها ، فحبسها التماسه هنيهة ، ثم عادت
إلى مكان هودجها فإذا بهم قد احتملوه وهم يحسبونها فيه ،
لخفتها . وتهيب الحند الدين يرحلون لها أن ينادوها أو يستوثقوا
من وجودها .

فأقامت حيث هي ، وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا
أحسنوا غيبتها .

وكان صفوان بن المعطل على ساقه الجيش يتخلف عنه ليلنقط
ما يسقط من لمتاع وربما كان السبي عليه السلام يعهد إليه في
ذلك ، لأنه كان ثقل النوم فلا يستيقظ حتى يأخذ الجيش في
لمسير ؛ وقد شكته امرأته إلى السبي لأنه ينام ولا يصلي الصبح
قبل طلوع الشمس .

فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له : إذا استيقظت
فصل !

وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأته إلى بعض معايها كأنها أرادت بثقل النوم كناية عن أمر آخر لا تفصح عنه . إذ قيل عن صفوان هذا إنه كان «حضوراً» لا يأتى النساء ، وسُمع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كتف امرأة قط .

فلما نهض صفوان ليتبع الجيش فى ساقته رأى سواداً على البعد ، ثم عرف السيدة عائشة ، فحمل يسترحع ويعيد استرجاعه : إنا لله وإنا إليه راجعون : إنا لله وإنا إليه راجعون . . . كأنه يسهها بالاسترجاع ، لأنه يتهيّب التحدث إليها . ثم قرب البعير وقال : أمّه . قومي فاركسى ، وأخذ برمام البعير يقوده حتى أدرك الجيش فى نحر الظهر .

حدث هذا وابن سلول لم يفرغ من دسيسته الأولى التى أزعجت الجيش ، وأوقعت الاضطراب فى حركاته ومواعيد رحيله ومسيرته ، فسنتحت له فرصة للقليل والقال لا يضيعها الرجل الذى عَزَّ عليه أن تنقضى مشاجرة بين أجيرين على الماء دون أن يشير فيها تلك الثائرة الهوجاء ، وراح يقول : والله ما نحت منه ولا نجا منها ، وأطلق لسانه فى حديث الإفك على الطريق ، وبعد العودة إلى المدينة ، عسى أن يوقع بين النبى وأقرب الأصدقاء إليه نبي بكر الصديق ، أو يملح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم ، أو يقيم بين قومه الخرج وسائر المسلمين شغباً يقعون فيه عصبية له وأنفة من هواه ، فينتفضر أمر الإسلام من أوس وخرج وأنصار ومهاجرين .

قالت السيدة عائشة فى بعض ما روى عنها : « وقد منا المدينة فاشتكت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ووصل

الخبير إلى النبي وإلى أبوي ولا أشعر بشيء من ذلك ، وكان
 يريسي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى
 منه حين أشتكى . إنما يدخل عليّ فيسلم وعندى أمي
 تمرضني . ثم يقول : كيف تبيكم ؟ ثم ينصرف . فذلك الذي
 يريبنى . حتى خرجت بعد ما نضحت ، فخرجت معي أم مسطح
 وهى بت خالة أبى بكر . . وعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت :
 تعس مسطح! . . قلت لها : بش ما قلت : أتسيين رجلا شهد
 بدرًا؟ . . قالت : يا هنتاه ! أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال؟
 فأخبرتني بحديث أهل الإفك . فازددت مرضًا على مرضى ،
 ورجعت إلى بيتي ، فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقألى
 دمع ، ولا أكتحل بنوم . ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم :
 كيف تبيكم ، فاستأذنته أن أتى بيت أبوي ، وأنا أريد أن أتشت
 الخير من قبلهما . فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوي
 ودخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفلى وأبا بكر فوق يقرأ .
 فقالت أمي : ما جاء بك ؟ قلت لأمي : يغفر الله لك . تحدث
 الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا ؟ قالت : يا
 بنية! هوئى عليك فوالله لقلما كنت امرأة قط وضيئة عند رجل
 يحبها ولها ضرار إلا أكثرن عليها . . فستعبرت وبكيت ، فسمع
 أبو بكر صوتى فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ فقالت : بلغها الذى
 ذكر من شأنها ، ففاضت عينه . وبكيت تلك الليلة واللييلة التى
 بعدها ، وأبواى عسى يظلمان أن البكاء فالتق كبدى . . فبينا نحن
 على ذلك دخل علينا رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد وقال : أما
 بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة

فسببرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى . فإن
 العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه . . فلما
 قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ،
 وقلت لأبى : أجب رسول الله ' قال : والله لا أدري ما أقول . فقلت
 لأبى : أجيبى فقالت كذلك والله ما أدري ثم قلت : لقد
 سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم ، فلئن قلت لكم أبى
 بريئة والله يعلم أبى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله
 يعلم أبى منه بريئة لتصدقننى . فوالله لا أحد لى ولكم مثلاً إلا قول
 أبى يوسف عليه السلام : فصر حميل والله المستعان . ثم تحولت
 فاضطجعت على فراشى ، وما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى
 وحيًا يتلى . . وكنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى النوم
 يبرئنى الله بها ، وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما أعلم أهل بيت
 من العرب دخل عليهم ما دخل على . والله ما قيل لنا هذا فى
 الجاهلية حيث لا يعد الله ، فقال لنا فى الإسلام . . فأخذ رسول
 الله ما كان يأخذه عند نزول الوحي ، فسجى ووضعت له وسادة من
 آدم تحت رأسه ، فلما سرى عنه إذا هو يضحك . وإنه لينحدر منه
 العرق مثل الجمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم ، وكان
 أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ! أما إن الله قد برأك . فقالت أمى
 قومي إليه . قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله . وتناول
 رسول الله درعى فدفعته يده فأخذ أبو بكر النعل ليعلمونى بها
 فمعه رسول الله وهو يضحك ويقسم عليه ألا يفعل . . « .
 إلا أن النبى عليه السلام قضى فترة من الوقت قبل ذلك وهو فى
 قلق شديد لا يدري ماذا يفعل . واستشار الصحابة فقال له عمر

بأسلوبه الحاسم : من زوحها لك يا رسول الله ؟ قال : الله تعالى ! قال : أفَتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك ؛ هذا بهتان عظيم . ودعا علياً وأسامة بن زيد ليستأمرهما في فراق أهله . فقال أسامة بن زيد : أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم إلا خيراً ، وقال علي : يا رسول الله لم يُضيق الله عليك والنساء سوها كثير . وإن تسأل الجارية - يعنى بريرة - تصدقك فدعا بها وسألها : أى بريرة ! هل رأيت من شئ يريك ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أغمضه أكرم من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله . وسأل زينب بنت جحش وهى أحب سائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى . ما علمت إلا خيراً . والله ما أكلتها وإسى لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق .

وفى خلال ذلك كان عليه السلام يتأذى بحديث الإفك ، فخطب المسلمين . قائلاً : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ؟ . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، ولا يدخل بيئاً من بيوتى إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا عاب معى يقولون عليه غير الحق . فقال أسيد بن حصير : يا رسول الله . إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من بنى نضلة من الخزرج فمرونا أمرك فوالله إياهم لأهل أن تضرب أعناقهم فوثب سعد بن عبادة وصاح به : كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . وهم به أسيد بن حصير ، وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة ، لولا أن أدركهم النبى بحسن توفيقه .

هذه خلاصة حديث الإفك بحذافيره كما بقى لنا فى مصادره
التي يعتمد عليها اليوم كل باحث فى موضوع هذا الحديث ،
كائنًا ما كان ظنه بالإسلام أو بالنبي وأهله

وفى وسع القارئ أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة ،
فهى على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من
ورائها تربة الكيد والوقيعه التي نبتت فيها ، إذ هى تربة وبيثة
تنضح بسخائم الحصومة الدينية والسياسية ومساوئ الخبيث
والكذب والنفاق . وحليق بها أن تسعث الشك فى كل حديث
ينبت بين طياتها ، ولو زعموا له من الأسايد والشبهات أضعاف
ما زعموا لهذه الوشاية الواهية . وليس لها من سند ولا شبهة إلا
أن السيدة عائشة تأخرت فى الطريق هنيهة حين تحرك العسكر
على حين فجأة ، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت فى
مواعيد النزول والرحيل .

تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين
الخارجين للجهاد فى حضرة نبي الإسلام ، إذ لو كانت كل امرأة
تتأخر فى الطريق تؤخذ بالتهمة فى دينها وعرضها لكانت التهم
فى الأعراض أهون شىء يخطر على بال

بل لو تأخرت كل امرأة فى الركب غير السيدة عائشة لجاز أن
يلحق بها شبهة من هذا التأخير ، لأن الركب لم تكن فيه امرأة
غيرها ، ليهاتها الموكلون بهودجها أن ينادوها ليتأكدوا من
وجودها ، ولم تكن فيه امرأة أخرى تهاب الرقبة من جيش
المسلمين كما تهابها ، وهى زوج النسي و بنت الصديق ، وقد كان
أبوها يحمل راية المهاجرين فى تلك الغزوة بعينها .

وعلى الذى يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما يناقضها كثير

عنه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنسب ولا بأحكام الإسلام .

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهى زوج النبى - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه .
ولا دليل على هذا ولا ذاك .

بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تحرى فى كل سياق وردت لهما مسيرة فيه .

فصفوان كان مسلماً عيوراً ، وكانت غيرته فى حادثة الماء التى تصاول فيها المهاجرين وأتباع ابن سلول هى التى عرضته لهجاء حسان بن ثابت ، ولعلها هى التى بغضته إلى ابن سلول ، فتمادى من أجل ذلك فى اتهامه ، وقد حصر العزوات ، ومات شهيداً ولم يذكر قط بسوء .

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النسب وحفظتها حفظ من يتبرك بها ولا يعقل عنها . ومن إيمانها بصدق هذه الكلمات أنها اشتكت فى خصومات دامية تثير الحفائظ ، وتهون عليها أن تحارب خصومها باختلاق الأحاديث التى تزرى بهم وتبطل دعواهم لو كانت ترتاب فى صدق الأحاديث كلها . ولكنها لم تبج لنفسها قط شيئاً من ذلك ، ولم تذكر حديثاً قط على غير وجهه الذى تؤيده الروايات الأخرى . وقد كانت فى طريقها إلى وقعة

الجمل بعد وفاة النبي بزهاء ثلاثين سنة ، فبحثها كلاب على مقربة من ماء في بعض الطريق ، فسألت : أى ماء هذا ؟ قال الدليل : هو ماء الحوآب . فأجفت إحفالة مروعة ، وصحت بحيث يسمعها أدلاؤها . إنا لله وإنا إليه راجعون ! وضربت عضد غيرها فأناخت ، وأبت أن تتحول عن مكانها . فلما سلب في ذلك قالت : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه : ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوآب ؟ ردوني ردوني والله أنا صاحبة ماء الحوآب . وما زال الركب مقبما في ذلك المكان يوماً وليلة وهي مصرة على الرجعة ، وهم يزعمون لها أن الدليل قد أخطأ ، وأن المكان غير المكان الذي تخشاه ، ولم يزل عبد الله بن الربير يقبعها ويهدئ من روعها ، وهو ابن أختها وأحب الناس إليها . وبه تكنى في أشهر الروايات ، وهي تأسى المسير إلا أن تعود إلى مكة . حتى أرسلوا إليها من يصيح في الركب . النجاء النجاء . قد أدرككم على بن أبي طالب . فأذنت لهم في المسير بها ، وقد أخافتها الصيحة وحامرها الشك في كلام الدليل

هذا وليس معها في الركب من سامعى ذلك الحديث غيرها ، فكيف تغدر بالنبي زوجة تصدقه هذا التصديق ، ولا تأمن أن ينكشف سرها بوحى من الله ؟ ومن هي تلك الزوجة بعد هذا ؟ هي بنت الصديق الذي لم يوصم بيته بوصمة في الحاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى في الإسلام ومع نبي الإسلام . إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك بها فصلا عن تلك الوشاية الواهية . ويبقى على من يقلها أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف شأت علاقة صفوان المزعومة ؟ في تلك الليلة . بعينها ؟ فكيف احترأ

الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيبون المناداة عليها في هودجها ؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة وهو لا يشك في إيمانها بزوجه ، وليس له علم قبل ذلك بخيئة صدرها ؟ وإذا جبراً هذا الاجراء هوساً منه فكيف يصدق العقل أن امرأة السبي وشت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها ؟ إن التي نكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان .

أما إن كنت العلاقة المزعومة قل ذلك فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المافقين ؟ وما أغناهما إذن عن المجازمة في الطريق وعن الكارثة التي تنكشف للجيش كله في نحر الظهيرة ؟

كل أولئك سحف لا يقبله إلا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية ، وسواء فيه مناققو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر ، لأنهم لا يؤمنون بنبي الإسلام ، بل هؤلاء أبذل وأعمل ، لأنهم يؤمنون بمريم والمسيح وكان عليهم أن يعصمهم عاصم من هذا الإيمان .

إن تفنيد حديث الإفك له موضوع من كتابنا هذا ، لأنه حادث في تاريخ السيدة عائشة له أثر في لإسلام والشريعة الإسلامية ، وله أثر في صميمها لم يفارقها طوال حياتها ، وربما كان له أثر في موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به ذبوله على نحو من الأنحاء ، ولولا ذلك كله لما استحق من المؤرخ كبير التفات

بعد النبی

عاشت السيدة عائشة بعد النبی ستاً وأربعین سنة ، وتوفیت
وهی فی نحو السبعین من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .
وقد توفی النبی علیه السلام فی بیتها وفی يوم ريارتها ، ودفن
بالمكان الذی كان ینام فیہ .

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرص
الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبیل يوم وفاته حتی
استأذنه أبو بكر فی الخروج إلى بیته بالسبح ، وتفرق المسلمون
متفائلین وهم يرجون الخیر ویعدون عن حواظرهم بذیر الخوف .
فلما قبض علیه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع ،
وتعاضمها الحطب أن تملك صبرها وهو یموت بین سحرها
ونحرها ، فسیت لهول الساعة ما یسعی لها أن تستقبل به هذا
الوداع الذی لا یتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم
المؤمنین التی بیثت السنین بعد السنین تلقنهم ما لقنها من سداد
التحمل ووقار الحزن فی الملمات . . إذا هی تنس كل ذلك ساعة
فقدته . وإذا هی امرأة وإلهة بین النساء تلندم وتضرب وجهها

قالت : « . . . وجدت رسول الله ﷺ یثقل فی حجری ،
فذهبت أنظر فی وجهه فإذا بصره قد شحص وهو یقول « بل
الرفیق الأعلى من الجنة » قلت : خیرت فاخترت ، والذی بعثك
بالحق وقبض بین سحری ونحرى ودولتى ولم أظلم أحداً . فمن

سفهي وحداثة سني أنه ﷺ قفص وهو في حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

ولم تشهد دفته عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ماتعود في بلده وبين أهله ، وكان أهل مكة يسوون قاع القصر وأهل المدينة يقوِّسونه فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ، ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأوبهما يصرح كأهل مكة ، ولاخر يصرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبى طلحة به ، وم يعد صاحب أبى عبيدة

فحصر اللحد على طريقة أهل المدينة ، وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفته بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما . « ما علما بدفته ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من حوف الليل »

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقصره ، وهى لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات ، فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس مسلابس الحجاب ، وهى تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم ب قيد الحياة .

ودرت في أوائل العقد الثالث على كبر تقدير عبد وفاته عليه لسلام ، فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين ، وعاشت في

ذكراه خمسين سنة ، وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى فى نفسها أن أحدا لم يخطر له خاطره عن السيدة عائشة تجير التفكير فى حياة زوجية أخرى ، كأنه حاطر حرمة قداسة تلك الذكرى وهىة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه فى سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة فى خلال تلك السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم ، وهى تحاوز العشرين ، إلى أن فارقت الدنيا وهى تقارب السبعين . لأنها فى حدة نفسها ، ورفعة مكانها ، لا تقبل المراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبى عليه السلام ، وتوفّر المسممون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هى المرجع الأول فيما حفظ عده من أى القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمّهم ! ومنهم من هى فى سن بناته الصغيرات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع ! وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوى إلى الصلاة ولنسبيح فى حوار الضريح . أو تعمل فى مهنة البيت ذلك العمل الذى كان النبى عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه . ومن أهم الأشياء التى يتغنى أن تلاحظ فى حياة السيدة عائشة بعد النبى عليه السلام أنها قضت خلافة أبى بكر وعمر وهى لا تشعر بأن مكانها فى عهد النبى قد تغير ، أو بأن أمرا من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساحصة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كسرة وأثر كبير

ففى عهد أبى بكر كانت أمور السياسة العامة تجرى على
أحكام الدين ، وتركز منه ومن أصحابه إلى سند ركين ، وكان
الخليفة أباهما وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفى عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ،
ولكنها فى كلتا الحالتين لا تشعب ولا تؤذن بالصداع ، وكان
عُمرُ أهيبَ خليفة عرفه الإسلام ، وأحب خليفة إلى عائشة رضى
الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبى بكر وعمر إلى نيهما ،
فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما
وقع الخصام فى بيت النبى عليه السلام ، وحفظت له أحمل
الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النسي فقل له : إن
الله هو الذى زوجكها ، وأنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك .
وتم هذا الشكر حين ولى الخلافة فرعى لها المكاة الأولى بين
المسلمين ، وخص بيت النبى بالحصاة العليا من الحفوة
والعطاء .

فمضى العهدان - عهد أبى بكر وعمر - وليس فى الحياة
الخاصة ولا فى الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى
نوازع السياسة ، وما تعرض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .
ثم تغيرت الأمور فى عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرف السيدة عائشة نصيب من السياسة
العامة بعد موت النبى ، وهو الموقف الذى تحولت بها الأحوال
إليه بعد احتتاب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير
سابقة له فى سيرتها الأولى .

فى السىاسة العامة

قلنا فى فصل سابق إء السىءة عائشة لم تقضى حىاتها فارغة
خلال السىن الطوال التى انقصب بعد وفاة السى علىه السلام .
«لأنها فى حءة نفسها ورفة مكانها لا تقبل الفراغ» .

وأما حءة نفسها فمن السهل بعد إلمامة يسيرة بمزاجها
وتكوینها الذى يشبه تكوين أبیها أن نعرف كيف یتعذر الفراغ على
هذه السلیقة الحیة التى شط بها المزاج العصبى ولم یقعد بها
الترهل والإعیاء .

وأما رفعة مكانها فهى أحرى أن تشغلها عن الفراغ مریدة له أو
غیر مریدة ، لأنها تعودت أن یؤبه لها طوال حیاتها ، ولم تتعود قط
أن تكون عقلاً فى بیثتها ، وهى أرفع بیئة بین قومها

نشأت عزیزة فى أکها ودوبها ، عزیزة فى بیت أبیها ، عزیزة فى
أعر البیوت العربیة بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن
الوجب لها ولنشأتها أن یؤبه لها طوال حیاتها ، وألا یكون فراغها
بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقیقة لو التفت لها ولالة الأمر كما یبغى فى حیها
لسلمت السیاسة العامة فى ذلك الحین من جرائر الخطأ الذى
وقعت فیه .

ولا بدع في تقرير تلك الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولا مرعية في سياسة أقطابها ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهي أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت «أصول» السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تطل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها ، وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معيشتة وعاداته ، وكان هذا وحده عملا حليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ووجوب المصلحة ووجوب السياسة . وكان هذا الواجب «أصلاً مرعياً» من أصول السياسة العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصدوا إليه أو نهوا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور . .

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إنيه دوافع الأحوال .

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيبيًا حقًا ، لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ، ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدورًا للسيدة عائشة في عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائئًا عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالآلاف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخيفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التي يُخصّصُ بها القريبات والقريبون ولا يصبطلها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غصب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يحزنه للمكاثرة والادحار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحساس إلى المعورين وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار .

ولقد كانت تنكر التزيد من الشراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف - وهو مثل من أمثلة عدة - وافر الشراء على عهد أبي عبيد ، عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيها سعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجّت لها المدينة ،

وسمعت رجَّتْها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه
ذهب إليها يشهدا أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل
الله !

فغضب السيدة عائشة من بقصر العطاء لم يكن غضب
الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً
من غصاصة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها
النفس بتعليل مقبول .

وشاع القدر والسخط من ولاية عثمان وحواشيه ، وكثرة القيل
والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام .

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخى
عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام
الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين

وكان الوليد متهمًا بالخمر ، وشاع في المدينة أنه أمّ الناس يوماً
في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل
أزيدكم ؟ فإني أجد في نفسي نشاطاً !

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمس
لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها
بعد أن قدموا على الخليفة فتبرّمت بهم حاشيته وبرّأوا الوليد عنه
مما اتهمه به أهل مصره . فقال لهم : أكلمنا غضب رجل منكم
على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلنكم .
فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض
الغظة ، فقال مغضباً أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ

إلا بيت عائشة ؟ فسمعتة . فقبل إنها رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت : تركت سعة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ . . . وتسامع الناس فحاءوا حتى ملأوا المسجد فممن قائل : أحسنت ، ومن قائل ما للنساء وهذا ؟ حتى تحصصوا وتصاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه »

وم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد أولادة وقبول الشكاة بل قريت هذه السياسة بينها وبين اللاحثين إليها . فلما شكوا الناس من وإلى عثمان في مصر - عبد الله بن أبي سرح - واتهموه في رجل ممن شكوه إلى الخليفة فرعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قتل منهم رجلا فأصمهم من عاملك

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ، ويسيطون لهم ظلامتهم وشكيتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فالحف كبار الصحابة على الخليفة في إنصافهم . وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشكاك إلى طلب المرید من حمالة أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر - أخاها - ليخلف عبد الله بن أبي سرح حين خيره الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم حليته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان وصحائه المحلصين .

ذلك أن الوفود القافية إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتابا في أنوبة من رصاص وفيه إله « إذا أتاك محمد بن

أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم وأبطل كتابه وقرّ عسى عملك حتى يأتيك رأى فى ذلك إن شاء الله .

وأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر فى نفوس الصحابة ، وفى نفس السيدة عائشة ، وفى نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ فى طريق غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال فى عهد عثمان هو الذى تحول بالسيدة عائشة من موقفها لأول من حكومة أبى بكر وعمر إلى موقف الاشتراك فى السياسة العامة والمجاهرة بالقد الشديد لحكومة عثمان وولاية عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذى جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهى مهمة الوساطة بين الشعب والحليمة أو مهمة الحماية لمن يجهررون بالشكوى ويخافون عقابها .

فلولا الحمق الذى اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة فى مكانتها العليا من الأمة الإسلامية ، وهى تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منارل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والرلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلودوا بييتها ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستعادوا من ليأذهم بذلك البيت وفرعهم إلى ذلك الجوار

وكانت انطامة الكبرى أن تأتمر الحشية الحمقاء بحياة أخيها ، وتنشد إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها .

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في برّه وتقواه فإن الرجل الذي تورع عن إهراق قطرة دم في مسيل الدفاع عن حياته ، والخطر محقق به من جميع جهاته ، لن يأمر سفك دم ابن صديقه ورميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عن يحتارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

وبكن ما الذي أصاب الحاشي المدير للدسيسة ؟ ولم نحا من العقوبة ؟ ولم لم يكتشف للملأ لولا أنه من رحلال الحاشية ، وأن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنفذوه ؟ وماذا لو أن العلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً في محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف !

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالعض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتأمر على قتل أحبيها لغير ذنب جاء ، وسلكت في خلال ذلك مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية ، وأن تنادى على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضي حيث مضت تلك الحاشية في حنفها وغلوائها .

قيل إنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلّت قميص النبي وبادت . « يامعشر المسلمين ! هذا حبيب رسول الله لم يبلّ وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يُرجى من الحير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوَّصر عثمان وحيل بينه وبين الزد والماء دهست أم حبيبة إلى داره ، وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين - فاعترض الشوار بغلتها ، وكانت معها إدارة ماء تخفيها قالوا ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا يهلك أموال الأيتام والأرامل ! وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثور عليها وقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقها كرم الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرمت المقام بالمدينة ، وهي على هذه الحال من الفتنة الطاعية ، فتجهزت للحج واستصحبته أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم - وهو رأس البلاء - إلى جوار السيدة عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتواء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . . فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجدر من يمنعني ؟ لا والله ولا أعبر ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميثوس منه ، فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت . قد فرغت من جهازي وأنا حارحة للحج . . قال عندئذ :

في دفع لك لكل درهم أنفقته درهمين ، فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول . « لعلك ترى أنني في شك من صاحبك ! أما والله لو ددت أنني أطيق حمله فأطرحه في البحر » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها . أن بعضهم سمعها تقول . « اقبلوا نعلنا فقد كهر » ؛ وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يحدث الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بنى أمية مثلوا بأحبيها محمد ابن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ، ووضعوه في جوف حمار ميت ، ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر ، وأشهدوا على مثلته السطة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أحت معاوية بن حديج خروفاً وأهدته إلى السيلة عائشة - في ذلك العيد - وهي توصي الرسول أن يقول لها - هكذا كان شئ أخيك ؛ فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوباً قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله

لما تسامع المسلمون بأنبياء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاه الدولة الحديدية هذه الشماتة ، وحاف الأمويون من حرائرها ، ودم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ،

وحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتاعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها لخاص والمثوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وخلق بنا أن نردد حذرًا من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر ، أصحاب معاوية ، ومصدر الشيعة أصحاب علي : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والخيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة عليّ من دم الخليفة القتييل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القتيلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطراب أقرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرابها ، فإنها تلقت خلافة عليّ من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جئوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى في جيرها العسكران ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى
تصدى للزبير وطلحة فقال لهما . أما أنت يا زبير فحوارى رسول
الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم
المؤمنين معكما فهل حثتما بنسائكما

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة
عليهما بهذا السؤال الذى يغى عن كل جواب . فما من أحد
يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة فى رأى أو توافقهما فيه ، ونما
اللام الذى لا محيص عنه أن يتجاوزا الداء برأيها إلى الخروج
بها فى حومة قتال . وهما لم يخرججا إليها بالمحارم والأرواح .

كانت فى طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل
عثمان ليتلوا على الحجاج كتابه ، ويطلب النصفة بينهم وبين
الشائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان ، وأن
يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله ، لأنه
« اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإن يل الخلافة يسر
بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه » .

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث - أى اعتزال عثمان - ما
فزع الناس إلا إلى صاحبنا . قالت : إيهك عنك . لست أريد
مكابرتك ولا مجادلتك .

وألقت نفسها فى مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها
قبيل مقتل عثمان : فعرض لها أن ترحع إلى المدينة لتدرك الأمر
قبل فواته ، ولكنها سمعت فى الطريق ببيعة على فقالت فيما رواه
عبيد بن أبى سلمة وهو من حوولتها : ليب هذه انطبقب على هذه
إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت

بركسها رتوى ! رتوى وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان . فقال لها عبيد بن أبى سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمار حرقه لانت ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا : وقرلى الأخير خير من قرلى الأول »

وما لشت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناظم على على بن أبى طالب من أعدته ومناسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بروال الدولة والشروة ، الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، ولحق بهم طلحة والزبير ، وكلاهما طامح إلى الخلافة ، يائس من الأصار في المدينة فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تعنيهم عن القدر في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدر فيه بمستطاع ، لذلك أرفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحم عن الخروج إليها لولا علية البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ، ثم أصرت عليه لولا احتيالهم في إقناعها بمختلف الحيل

عبروا بماء الحوآب فسحنهم كلاله ، وسألوا أى ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوآب فصرحت بأعلى صوتها قائلة . إنا لله وإنا إليه راجعون ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه :

ليت شعري أينكن تبجحها كلاب الحوآب ؟ ثم ضربت عضد بعبره فأباحته وهى تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طروقاً . ردونى . ردونى . وأقامت يوماً وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلاً من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جاروا الماء . وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : العجاء النجاء فقد أدرككم على بن أبى طالب فأذت لهم فى المسير بعد امتناع شديد .

ونعتقد أن وقفها عند ماء الحوآب لم تكن آخره التردد من جاسها فى أمر القتال . فإننا فى الواقع لم نقرأ بين أحبار وقعة الجمل المتشعبة خيراً واحداً ينم على عرمة قتال مبيتة لعرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبى الأسود الدؤلى حين أشحبه إليها عامل على بالبصرة ، أنها كانت تستعد لخروج أحد من المسلمين لقتالها فقد سأله : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً قدم على قتالى ؟ وكان أبو الأسود رجلاً صعب المراس فى بصرة على فأجابه والله لتقاتلن قتالاً أهوبه الشديد ، وكان مما قاله لها قبل ذلك ليس على النساء قتال ، ولا لهر الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان ملك وأمر رحماً ، فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان بن حنيف والى على عليها . فسحاحروا عن الحرب غير مرة فى المربد وفى دار الرزق ، وبادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهائياً كاملاً من الصباح إلى العروب كثر فيه القتلى والحرصى من الحبشيين .

ثم أنمذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمرو إلى طلحة
والزبير وعائشة ، فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك ؟
وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بُني . الإصلاخ بين الناس .
قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما .
فبعثت إليهما ، فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما
أقدمها فعالت الإصلاخ بين الناس . فما تقولان أتما ؟ أمتابعان
أم مخالفان ؟ قالوا : متابعان ، قال : فأحبراني ما وحه هذا
الإصلاخ ؟ فوالله لئن عرفناه لصلحن ، ولئن أنكرباه لا يصلح .
فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة
رجل فعضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ،
وطلستم حرقوص بن رهير فمنعه ستة آلاف . فإن بركتموهم كنتم
تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتهموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا
عليكم ، فالذي حذرتهم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أتم منعم
مضر وربيعه من هذه البلاد احتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة
لهؤلاء . . فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر
دواؤه النسيك . فإن أتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة
ودرك بشار ، وإن أتم أبيتم إلا مكابرة هدر الأمر واعتسافه كانت
علامة شر وذهاب هذا المال . فأثروا العافية تررقوها ، وكونوا
مفاتيح الخير كما كنتم . ولا تعرضونا للسلاء فتعرضوا له .
فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنيت ، فارجع . فبن قدم علي وهو علي
مثل صلح الأمر . ثم أقر علي وساطة رسوله ، وأشرف القوم على
الصلح لولا أحبط هذا المسعى سفاهة السفهاء من العسكرين ،

فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتة جماحها الذى خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت ماتريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الإخوان . نادى على خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان^(١)؟ وهذا والله العار . . قال على : يا زبير ! ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والمار فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستشيره . أحسست رايت ابن أبى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد؟ قال . قد حلفت ألا أقاتله . قال : كفر عنيمينك وقاتله .

وبينما هم فى تقديم وتأخير ومشاورة ومشاورة أقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركى . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصدق بك . فركبت وألبسوا هودجها الإدراع . وتعالى الضجة من هنا وهناك . فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العكسر . قالت : بخير أو شر ؟ قالوا : شر . إذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاوة وإفلات الأعمى من الرؤساء .

(١) البطان حزام الدابة ، والتقاء الحلفتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حَمْلَةَ الحمل كانت حملة
اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعائها
يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف

والأفما يكون ذلك المصير ؟ إن أصحابها لم يريدوا بها أن
يفسدوا الأمر على عليّ بن أبي طالب ليصلحوا معاوية ، فليس
منهم زعيم من حربه والعاملين لدولته

ولم يتفقوا على ولاية منهم بعد هزيمة عليّ إن تمت هذه
الهزيمة وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من
الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة فيتولى بعضهم
العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم
وبين الحليلة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في
بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة
عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم ، إن فهم مأساة الجمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة
عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة من
ورائها عند الهجوم عليها ، فنعرف الية التي جنحت بالسيدة
عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعنينا من تاريخ تلك
المأساة في هذا الساق .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن
مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات

الحدة التي طسعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدا الذي رسم لها الوجهة واندفع بها على هذه الخطوة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا عرباء عن السيدة عائشة . ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسابق شعورها

فصلحة من بنى عموميتها ومن بنى قبيلتها وقبيلة الحليفة الأول الأول أبيها . والزبير زوج أختها أسماء ، وإنه عبد الله بنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأُم عبد الله .

وعلى أقرب لناس إلى بيتي النبي ، وزوج انتة ، وأبو حفيديه ، وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك ، وهو نصيحته للسبي بتطليقها .

ومن الحق أن نقول إن الشعور الذي تكنه السيدة عائشة لعلي من جراء هذه النصيحة شعور طبيعي لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً عليه السلام قد أخطأه التوفيق في تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطبق عائشة لشبهة لعط بها المنافقون وطلاب الوقعة بين النبي وأصحابه ، ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبي قد أدبها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وألها وصمة لا تمحى في زمانها ولا بعد بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وألها إلى الإسلام كله ، فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذي أفكوا به مطعناً

في صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذي قضى به الدين في هذه القضايا ولو مسّت من هنّ دون عائشة في الصدر والثقة . فما تحسب عليّاً قدسها عن هذا كله وهو يصبح إلى النّبي بتلك الصّيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النّبي ونيته . واستكباره في هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذي تقابل به النساء بصيحة كتلك الصّيحة فأفل ما يقال إنه شعور لا عرابية فيه .

ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان ، ومن هؤلاء الصحابة عليّ وطلحة والزبير كلهم قد تدبوا بالاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وفادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم »

وكان جائراً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير ، لأيهما وكبلان من وكلاء الشورى

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها؟ إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثني عشرة سنة ، وقد تكرّر اختيار الحليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأي

بعضهم كالعرف الذي يحرق عليه التقليد . وليس لعليّ سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك - كم أسلفنا - بغريب ولا بمخالف للمعهود في طوائف الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوّج موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وحصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوحه الذي لا غرابة فيه ، ولم يرد تسويغه في نظر العقل ولا في نظر التاريخ .

فعليّ قد أخطأه التوفيق في نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق في مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة بدمت على موقفها من يوم الجمل أشدّ مدامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتني مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة ليت كان سي من رسول الله ﷺ يوم عشرة وثلاثهم ولم يكن يوم الجمل وكنت كلما خاض الناس في حديث ذلك اليوم تبكي حتى تبل حمارها .

وعلياً أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية في حق عليّ رضي الله عنه ، فلم تهمة بدم عثمان ولم تنجاور بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المعربات بالاندفاع في هذه الغاشية كثيرة :
حدة في الطبع ، ومفاحاة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء
لعلی ، وسعی حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .
وانها مع هذا أقدمت على مورد منهم لا يتضح الشرف فيه ،
وترددت هالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضي
إلى قتال . وأصغت إلى دعوة لإصلاح ودعت إليه . وهو حادث
لا بد له من عبرة .

ون عبرته لأحق عبر التاريخ لإسلامي بالتسجيل .

حقوق المرأة

هى حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة فى عصرها .
وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة فى جميع العصور .
والحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة
الرجل فى واجباته العامة هى خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .
والسياسة - ولا سيما السياسة فى عصور الاضطراب - هى
المجال الذى يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه ، وقد
تؤدى فيه هنالك الخير إذا انترمت منه جانب المسالمة وكانت لها
وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة ولاشرف فلا طاقة لها به ، ولا
يتأسى لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما
يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .
فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها
العظيم يعينها فى شئونه ويكون فى مهنة البيت ما دام فيه
وكانت هى تعينه على شئون الهداية والإصلاح كلما وسعتها
المعونة فيها ، وقد بقنت الناس ما تلقنته منه فأحسنن التلقين .
وهذا فى جملته هو قوام الحقوق بين الجسدين
ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها فى بيت الرئاسة
شأت ، وفى بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه بها

وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارئ العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعي المودة والتفوق التي توحىها ، ولم تكن مثلاً يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلاً للنساء كافة وهي ربة بيتها وشريكة زوجها .

بل هي قد كانت أول مثل يستشهد به المستشهد عل صوب الحقوق التي عرفها الإسلام للنساء

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف فليس المهم أن تساوى الرجل في كل شيء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته . لأن لمماثلة مع الاختلاف ليست هي الصواب وليست هي الإنصاف

ولكن المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم في حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أداءه وتعنى فيه عداء الرجل ولا يعنى فيه الرجل غناها .

وقوام ذلك كله أنهن :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

وهي الدرجة التي ينفرد بها الرجال حيث تطل المشاركة في الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف في حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذي لا يتغير اليوم ، ولم يتغير قط ، ولن يتغير في العد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه جهالة تكشف
لا محالة فى يوم من الأيام ، وإن لم تكشف كانت كالداء المكتوم
أو بل ما يكون وهو مجهول والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافهما حقيقة علمية ، وحقيقة تاريخية ، وحقيقة
حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة

فالمرأة تخالف الرجل فى وظائف الغدد وفى تكوين الأعضاء
وفى شواغل الذوق والإحساس .

والمرأة تحالف الرجل فى أعمالها وتكاليصها منذ القدم فى
جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال
وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من
فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل فى القدرة حتى حين تشاركه فى العمل
الذى تفردت به منذ زمن طويل ، فهى منذ زمن طويل تراول
الطهى والحياطة والتجصيل والولادة وسدب الموى ونشيعهم
بالكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلى شأوا الرجل فى هذه الصناعات
إذا وقعت المرحمة بينهما فى إحداها . فالطاهى يفوق الطاهية ،
ومدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدّم على الطبيعة
المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من
الرثاء الجيد فى شعر الرجال

والمرأة تخالف الرجل ، ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التى
عمت الأحياء فإن سنة الفطرة لا ترمى إلى توحيد العمل ، بل
إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشتركا فى حقوق واحدة
وواجبات واحدة ، بل تجعلها جنسين ليختلفا فى الحقوق
كاختلافهما فى الواجبات .

هذه هي الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغي أن
تبنى المذاهب والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يفسرون الحقيقة على
مواقفها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة في عالم
الطبيعة .

ومن أمثلة المذهب التي تفسر الحقيقة على موافقتها مذهب
الشيوعيين في التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة فهم يريدون
أن يهدموا الأسرة ، لأن الأسرة في زعمهم أصل الاستغلال ، وأن
الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة
، ولهذا يحب أن يطمح هذا الاختلاف وأن تتقرر المساواة بين
الرجال والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال

وهذا تسخير للحقيقة في سبيل الرأي ، وهو وحده كفيل
بالقضاء على المذهب الشيوعي واقتساره عاجلاً أو آجلاً على
موافقة الحقيقة التي يردّها هو أن يقتصرها على هواه .

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة في جميع
الحقوق والواجبات وهما مختلفان هذا الاختلاف الطاهر للعيان ،
المثل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان
حيث يختلف الذكر والأنثى في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يجتمع فيه حكم المصرة وحكم الآداب
الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كماء ما عليها من الواجبات ،
وأن تعطى حقوقها وتسأل عن وحياتها بالمعروف ﴿ولهن مثل

الذى عليهن بالمعروف ﴿ لا بالإرهاب والإذلال فهناك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة ، وهما خير موطأ لإبصار الشرائع والآداب .
وليس من الحميد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات :
أمر من الإنصاف ؟ أم من الكرامة والمعروف ؟ أم من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟

واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزوج هو الزواج بين رجل وامرأة بتحابان ويمترحان بالحسم والروح ولا تتفرقان مدى الحياة
ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرصه القوانين على جميع الناس .

بما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التي تيسر كلما تيسر لكمال أو تيسرت مقاربة الكمال .

وليسب هذه بالحالة التي تفرصها القوانين على كل رجل وكل امرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب

فإبما تفرص القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرصها على لأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ، لأن هذه الأمثلة في غنى عن تعليم القوانين .

والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى

ولم يفرصه على كل مسلم ، ولم يحمده من كل مسلم ولم يخله من شرط عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في

المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخيلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجاوات .

وفي المجتمع الإنساني حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عوقبها . فلا تزال في كل جيل تشهد حرباً من الحروب العالمية التي ننجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأراامل بغير قرناء .

وقل ماشئت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الويل ، أو من إعطاء المرأة محلاً في المصنع بدلاً من محلها في البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعدد الأزواج كما يجوز للرجل تعدد الزوجات ؟

وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين . كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هي في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه
فى أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمه ودمها ،
وأن يصيبها بمثل هذا المصائب الأليم الذى ليس ألم منه ولا
أفجع فى نكبات النفوس .

وها محل عادل للدرجة التى للرجال على النساء ، كالعادل فى
محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعديد الزوجات وعند التفرد
بحقوق بحالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف فى التركيب
والتكوين .

* * *

على أن البحث فى حرية الزوجة والبحث فى حرية المرأة
مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة :

لأن الآراء على تناقضها تلتقى فى مسألة حرية الزوجة عند
ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان رأى فى
قداسة الزواج . فالذى لا ينكر الحيانة ينكر السرقة والاغتصاب ،
والذى لا يؤمن بالعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين
الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزوج شركة لها شروطها ،
وأهون ما يقال فى تلك الشروط أنها كشروط الشركة فى المال ،
فلا يجوز للزوجة أن تحتل من حقوق شريكها ولا أن تسرق
نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهنا الملتقى بين القائلين
بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

ولكن المسألة التى ينطلق فيها الغلو إلى غاية مداه هى مسألة البحث فى حرية المرأة على التعميم بمعزل عن علاقة البيت وعلاقة الزواج .

فمن أدعياء الحرية فى عصرنا هذا من يرى أن حرية المرأة التى لا روج لها هى رباحة مطلقة لا يقدها وأجب من الواحات ، وإن القيود الجنسية التى اصطلحت عليها الأمم منذ القدم إن هى إلا اعتساف من الأديان أو من الكهانات « الطوطمية » قبل الأديان ، ويعنون بالطوطمية بقديس بعض الأحياء واعتبارها سلماً لقبيلة يضمها فى نسب واحد ويحرم على أتباعه المراوجة كما تحرم الآن بين الإخوة والمحامرم .

وتمادى بعض هؤلاء فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تتقيد بموسم للمراوجة ، لا لوفرة الثمرات فى ذلك الموسم وامتلاء الجسم فيه يفيض من الحيوية يدعوه إلى طلب الذرية . قالوا : وإذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسيت قيود الموسم وطلبت المزوجة أنى نيسرت لها من أيام العام .

وهذا كلام لا يعنى أن نخوض فى تفاصيله وأن نتوسع فى تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرصاً أن اسرف فى موسم المراوجة أعمق جداً من الطعام وأحوج إلى الفهم جداً من هذا النظر القصير .

والأفلاماذا تتوافر الثمرات فى ذلك الموسم ؟ ولماذا يكون خصائص ذلك الموسم أن يزيد قوة التوالد فى النبات ولا يكون من خصائصه أن يزيد قوة التوالد من باب أولى فى عالم الحيوان ؟

وما بال الحيوانات التى تأكل ، لأحياء وتحدّها طول السنة تحرى
فى موسم المزوجة على سنة الحيوانات التى تأكل النبات ؟ وما بال
الأسماك فى البحار تقصد إلى الأنهار القصية ولمزوجة خلال فترة
واحدة وهى فى موسم متشابه من الأطعمة طوال العام ؟
إن سر التوالد بعد جداً من أن يحده ذلك انظر القصير ، لأنه
هو بعينه سر الحياة .

وأيّاً كان لقول فى الاختلاف بين الدواجن والأوايد فى موسم
المزوجة فالأمر الذى يتفقان فيه أن الحيوان لا يقارب الأنثى وهى
حامل ولا يطلب المرواجة للعبث والمجون .
فالحيوان نفسه لا يطلق من جميع القيود فى علاقاته
الجنسية

ومن السخف أن نرد قيود الأخلاق الجنسية فى الإنسان إلى
اعتساف الطوطمية والكهانة .

لأن الأخلاق كلها - جنسية أو غير جنسية - قائمة على ضبط
النفس أو على وجود الصوابط الأدبية فى بنية الإنسان .

والطعام - مثلاً - مباح لا يتعلق به عرض ولا شرف ولا تزييف
نسب ولا اختلاس ذرية ، ولكن الإنسان الذى لا يضبط شهوته
أمام إغراء الطعام حيثما أصابه ، إنسان مهين ولو كان طعامه من
كسب يديه .

وإنما كان ضبط النفس لازماً فى الشؤون الجنسية - لزومه فى
كل شهوة من الشهوات - لأنه قيمة أخلاقية يطلبها الرجل فى

المرأة وتطلبها المرأة في الرجل ، ويطلبانها معاً في الذرية التي
ترث منهما هذه الفضيلة .

وإذا نفر الرجل من المرأة التي تنطلق مع أهوائها وتتهافت على
شهواتها فهو لا ينفر منها لأنها حالفت الدين أو خالقت الطوطمية
كما يزعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لأنها مخلوق معيب في
تكوينه سلب من الضوابط السليمة التي تناط بها جميع
الأحلاق .

فالدين لم يعتسف هذا الضوابط اعتسافاً لغير علة ولغير مزية ،
ولكنه شرعها وهي في أصول الفطرة انقويمة ، لأنها مزية في
أحلاق المرء ومزية في أخلاق النوع ، وما كرامة نوع يعرف الإباحة
ولا يعرف ضوابط الشهوات !

ترجع قيود الجنس إلى أصول الحياة ، ولا ترجع إلى اعتساف
من دين أو شريعة .

ولو لم تكن تلك القيود مصلحة للفرد ولا للنوع كله لكانت فيها
دلالة على قدرة ضابطة في النفس هي قوام كل طبيعة مهيأة
للعلم في ميدان الحياة

وترجع قيود الجنس إلى مرجع آخر قريب من هذا المرجع في
ينبوعه لأصيل ، وهو أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي علاقة
بين شخصية وشخصية ، وليست علاقة بين جسدين أو
عصوين . وأية ذلك هذا الساق الحالد الذي تترقى به الأحياء
جميعاً ، لأنه يوكل الانتخاب الجنسي بأكمل المحاسن وأندر
الصفات ، ويجعل « الشخصية المتكاملة » هي الهدف الذي

يتجه إليه ذلك السباق ، وأصدق من أدعاء الحرية هؤلاء طبيعة المرأة التي لا تخدعها ، فإنها لتعلم من قرارة وجدانها أن طلائفها بخس لقيمتها ، إذا كان معنى الطلاقة أن تسعى هي إلى الرجل ولا تتركه يسعى إليها ، ومن قبل المرأة في عالم الإنسان كانت الأنثى في عالم الحيوان جائزة للمنافسة والسباق ، ولم تخلق لها وسيلة واحدة من وسائل الاقتحام التي ميز بها الذكور .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنساني بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التي تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادى بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادى نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للمقدم مزيته الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهي أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

فهرس

٣ المرأة العربية
١٤ المرأة المسلمة
٢٠ المرأة الخالدة
٣١ عائشة
٤٤ زوج النبي
٦٧ حديث الإفك
٨٣ بعد النبي
٨٧ في السياسة العامة
١٠٧ حقوق المرأة

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير

عبدنل محمود العقاد

- | | | |
|--|--------------------------------------|--|
| ١ - الله . | ٢٧ - سارة . | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أو الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطلع قنبر أو طواف الربعة المحمدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - علم السدود والقيود . |
| ٤ - عبقرية محمد ﷺ . | ٣٠ - ما يملك من الإسلام . | ٥٦ - مع طاهل الجزيرة العربية . |
| ٥ - عبقرية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام وأبطال خصومه . | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة . |
| ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - تفكيك فرضية إسلامية . | ٥٨ - دراست في القلق الأدبي والاجتماعية . |
| ٧ - عبقرية خالد . | ٣٣ - فلسفة لغزانية . | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون . |
| ٨ - حياة للنسج . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - بحوث في لغة والأدب . |
| ٩ - نور التورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوربية . | ٦١ - خوافل في الفن والقصة . |
| ١٠ - حمزة بن عباس . | ٣٦ - ثقافة العربية . | ٦٢ - دين وطن وفلسفة . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - لغة الشاعرة . | ٦٣ - قنود وشجون . |
| ١٢ - داحي السماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر ويونانهم . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - اثنتان مجتمعات في لغة والأدب . | ٦٥ - قديران في الأدب والفن . |
| ١٤ - غاشمة الرعاء والناشرون . | ٤٠ - حياة نظم . | ٦٦ - عهد الظلم . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة اليومية والشذور . | ٦٧ - وفود وحدود . |
| ١٦ - إيليس . | ٤٢ - ملهبة نوى العادات . | ٦٨ - ديوان بقلقة الصباح . |
| ١٧ - جحا الصالحك للصالحك . | ٤٣ - لا شريعة ولا استعمار . | ٦٩ - ديوان ومع الظهرة . |
| ١٨ - أبو نواس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٧٠ - ديوان أشباح الأصيل . |
| ١٩ - الإنسان في القرآن . | ٤٥ - الصهيونية العالمية . | ٧١ - ديوان وحى الأنجين . |
| ٢٠ - المرأة في القرآن . | ٤٦ - أنسوف . | ٧٢ - ديوان حلية لكروان . |
| ٢١ - عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده . | ٤٧ - لنا . | ٧٣ - ديوان طائر سبيل . |
| ٢٢ - سعد زغلول وعجم الثورة . | ٤٨ - عبقرية الصديق . | ٧٤ - ديوان أماعصر مغرب . |
| ٢٣ - روح علوم المهاتما غاندي . | ٤٩ - تصديقة بنت الصديق . | ٧٥ - ديوان يمد الأماصير . |
| ٢٤ - عبدالرحمن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٦ - عرائس وشياطين . |
| ٢٥ - رجعة أبي العلاء . | ٥١ - جميع الأحياء . | ٧٧ - ديوان أشجان الليل . |
| ٢٦ - رجال مرثهم . | ٥٢ - الحكيم لطلق . | ٧٨ - ديوان من دولتين . |
| | | ٧٩ - قطر في ليلتين . |
| | | ٨٠ - أنيون الشعوب . |
| | | ٨١ - لقرن العشرين ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - فلسفة والأديان . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

